

أقرأ

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

[٢٦٢]

رئيس التحرير

إسماعيل منتصر

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة المصرية العامة لدراسات الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

منصور، أنيس، ١٩٢٦ -
بقايا كل شيء / أنيس منصور - ٠ - ط ٠ ٢ -
القاهرة : دار المعارف، ٢٠٠٧ - ٢٠٠٨ .
١٥٢ ص : ١٨ سم .
تدمك ٥ - ٧٠١٢ - ٠٢ - ٩٧٧ - ٩٧٨
١ - المقالات العربية -
(أ) العنوان

ديوى ٨١٤

١/٢٠٠٧/١٢

رقم الايداع ٢٠٠٧/١٠٦٠٥

نائب رئيس التحرير
منى خشبة

مدير التحرير
كريمة متولى

مدير فنى
شريفة أبو سيف

تصميم الغلاف
شريف رضا

تنفيذ المتن والغلاف
بالمركز الالكتروني
دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

هاتف : ٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس : ٥٧٤٤٩٩٩ - Email: maaref@idsc.net.eg

أنيس منصور

بقايا كل شيء !

الطبعة الثالثة



دار المعارف

اقرأ

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها ، لم يفكروا إلا في شيء واحد ، هو نشر الثقافة من حيث هي ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية . وأن ينتفعوا ، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة ، والطموح إلى حياة عقلية أرقى واخصب من الحياة العقلية التي نعيشها .

طه حسين



دار المغارف بمصر

كلمة

هذه الصفحات هي بقايا دموع . . . صدى صرخات . . . ترددت
بعيداً . . . في نفسي ، وفي نفوس الآخرين . . .
لها طعم الملح ، ولسع النار ، ووخز الإبر ، وإلحاح الضمير ،
وبريق الأمل . .
إنها خريطة لأعماق . . .
وليست أعماق ، ولا كل الأعماق ، واضحة . . .
فأنا دائماً أحاول ، دون ملل ، أن أوضح نفسي لنفسي ، أن أسلط
نفسى على نفسي ، أن أقلب نفسي بيدي وأتفرج عليها . . برفق كأننى
أحبها ، وبقسوة كأننى أكرهها !
وبين كراهيتى لنفسي وحبى لها : تتساقط الدموع ، ويتطاير
العرق ، وتتمزق آهاتى ، وتضيق . .
وأضيق أنا . . فأنا لست إلا آهاتى !
وتنسحب كل ألوان الطيف ولا يبقى إلا لون دنيائى : مرارة الطفولة ،
وحيرة الشباب ، وفزع الرجولة !
ومن ومضة العين الحائفة ، ومن رجفة النفس القلقة ، ومن موت
أصابعى على قلمى ، ومن ابتسامة زائرة لها لون الملح ودفء النار ، وطعم

الضمير ، من كل هذا؛ كتبت صفحات هي بقايا نفسي ، وشفايا
الآخرين ...

إنها بقاياي ... إنها شفاياهم !

أنيس منصور

صاحب مصنع

رأيت . في قرية أحد الفلاحين يملك مصنعاً أنيقاً . . المصنع أبيض
ناعم . . إنه يتحرك وصاحب المصنع يمشى وراءه . .
وأحياناً يتعب صاحب المصنع . . فيجلس إلى جوار الحائط . . .
أى حائط . . ويسند رأسه ويحملق في الأفق . . وفي يده عصا . . وينام
وعيناه مفتحتان . . فإنه متعب للدرجة أن جفنه العلوى لا ينطبق على جفنه
السفلى . . . إلا بصعوبة . . إن جاذبية الأرض لا تشد جفنه . . وإنما
تشد دموعه من حين إلى حين . .
وعند ما يصحو هذا الفلاح ويتنبه إلى أن مصنعه — مصدر حياته ،
مصدر ثروته — قد انتقل إلى مكان بعيد . فإنه يصحو من نومه أو من
يقظته . . ويمد يده إلى الأرض يجمع بعض القود لهذا المصنع . .
لأن المصنع يعمل كل يوم . . وينتج كل يوم . .
ويأتى بالمصنع ويحمله على ذراعيه . . على صدره . . في حنان . .
كأن وجدت طفلها . .

ثم إذا هو يربط المصنع الصغير بحبل ، ويلف الحبل حول رجله هو
ويضع القود خلف المصنع أو أمامه . . ويعود إلى الحائط ويسند
ظهره . . ويلقى بجسمه على الثبوت الذى يحمله في يده ، ويتطلع

إلى سحابة في السماء . . إنها لحاف طائر ، إنها سرير من حرير . . وعلى هذا
 السرير يتمدد وينام . . ويترك مصنعه الصغير يعمل . . ولا يدهش أبداً
 عندما يجد المصنع الأبيض الناعم يتطلع هو الآخر إلى السماء . . إلى
 السحاب . . ثم يسند المصنع الصغير رأسه إلى القيد . . إلى الحبل وينام . .
 . . . هذا الفلاح يملك إوزة !

تحت السلم !

« كان وجه جدتي العجوز أبيض ناصعاً . . وكان باسماء أيضاً ، كأن جدتي العجوز قد نسيت أنها ماتت ! » ..

صاحب هذه العبارة هو الكاتب الرويحي العظيم كنوت هامزن . وجاءت هذه العبارة في قصة « الجوع » .

ويذكرني بهذه العبارة ، كل صباح وكل مساء رجل عجوز لا يعرف أحد بالضبط متى ولد ولا حتى متى يموت . ولا أحد يعرف من أين جاء . إنه مثل « طرح البحر » ألقت به الحياة إلى تحت السلم . . إنه يشبه جذع نخلة . . إنه جاف مجعد . . وكلامه مجعد . فالكلمة الواحدة تتحول إلى حرف واحد أو حرفين متداخلين . ولا أحد يفهم ما يقول . فاللغة التي هي وسيلة المواصلات بين الناس لم يعد لها معنى عنده ، ولم تعد لها ضرورة . . فهذا العجوز يطلق أصواتاً كالحيوانات أو كالقبائل البدائية . . .

فهناك من يقول إنه ابن أحد العمدة وقد حاول أبوه أن يزوجه إحدى قريباته فرفض . وهرب من أبيه . وجاء إلى القاهرة يكسب قوته بعرق جبينه . ولم يكن صاحب حرفة .

فهو ابن ذوات . ولذلك وقف في الشوارع يسأل الناس أن يعطوه ما يستحقه من أموال أبيه . فهو يجمع حقوقه من جيوب الناس . .

ويقال إنه جمع مئآت الجنيهاً . . . وهذه المئآت مكدسة في صفائح . والصفائح موجودة تحت السلم . وقد حدث في العام الماضي أن ذهب هذا العجوز « عم سيد » بإحدى الصفائح وأعطاهما لرجل غني . . أمانة ، واكتشف الرجل الغني أن بها مائتي جنيه من الفضة . ويقال إن عم سيد غضب من هذا الرجل الغني ، ورفض أن يسحب أمواله من عنده !

ويقول أناس آخرون : إن عم سيد هذا يضع الأموال في جيوبه ويتصدق بها على الفقراء . .

ولكن الذي لا أفهمه ولا أدريه أن هذا الرجل يطالب نفسه بمسئوليات ثقيلة . فهو يصر على أن يكنس وأن يمسح وأن يتولى حراسة البيت . . برغم أنه عجوز وعاجز عن السير والحركة . لا أحد يطالبه . . لا أحد يسأله شيئاً . ولكنه يعمل ليلاً ونهاراً حتى يسقط من الإعياء على السلم . . وأكاد أضغ حداثي كل يوم على صدره فيموت . . وأرى وجهه في النور فأجده هادئاً باسمياً كأنه نسي أنه مات . . أو أنه يجب أن يموت . . ولكن ما هو الموت ؟

إن هذا الرجل ليس ميتاً فهو يتنفس وهو يدافع عن حياته بما بقي لديه من قوة .

ولكنه ليس حياً أيضاً . فالحي هو الذي له مشكلة ، وهذه المشكلة هي حياته هو ، كيف يحسنها ؟ كيف يوسع نطاقها ؟ كيف يعادى ؟ كيف يصادق الآخرين ؟ كيف يواجه غده وبعد غده ؟

إنه ليس حياً ، وليس ميتاً . . . إنه مستمر . . . كأنه قناة ضيقة ،
 بها ماء . . . والماء يزحف على الأحجار الصغيرة في قاعها . . . أو كأنه
 غصن شجرة يتهاى للجفاف التام . . . فيه عبارة حياة ، ولكنها تتناقص
 يوماً بعد يوم . . .

إن الحياة تقوم فيه بعملية جرد أو تصفية ، فهي أطفأت نور عينه ،
 وقطعت الحرارة عن قلبه ، وحددت إقامته تحت السلم .

وأشعر أمام هذا الرجل بالإشفاق والكراهية والفرع . . .
 إنه مسكين ليس له أحد ، وليس لأحد . . . وأكره أن ألقى هذا
 المصير ، وأكره أن أموت عضواً عضواً هكذا . . . أن أموت على دفعات . .
 أن أموت بالتجزئة . .

وأفرع من هذا الاستسلام الباسم . . .
 كأنه نسي أنه مات . . . أو يجب أن يموت . . .
 وفي الليل وفي النهار عندما أعود إلى البيت أراه يزحف على السلم . .
 لا أدري كيف . . . كأنه قطعة من الخبز القديم تجرها ملايين النمل . .
 ثم أرى التراب يزحف وراءه ويتعلق به ، كأن تراب القبر يطارده . .
 إن عم سيد هو الحى الذى يلاحقه قبره . وهو باسم الوجه . كأنه
 لم يموت بعد !

شكة إبرة ؟ !

كنت أصرخ وأبكي وأقول بصوت مذبوح : والله يادكتور . .
اعفني من حياتي كلها . . اعفني من مشاكل وعذابى . . لأننى أحمل
الكثير على كفى . . أرحنى يادكتور . . هذه فرصة انتظرتها طويلاً . .
اجعلنى أنام هكذا يوماً أو شهراً أو سنة . . أو اتركنى أنام إلى الأبد . .
وكنت أرفع رأسى والنصوء يتدفق ساخناً كاوياً . . فلا أرى إلا أربعة
من المرضيين وإلا منضدة طويلة تلمع بالسكاكين والمشارط والمناشير
وكل أدوات القتل والتعذيب . . وكنت أرى وجه الطبيب : إنه صديق
الدكتور ف . . لأننى لم أعد أرى فيه وجه الصديق . . إنه وجه جاد
قاس لا يعرفنى ولا ينظر إلى . . ولا ينطق إلا بعبارة واحدة هى : يا أخى
إنها شكة إبرة ! شكة إبرة !

وسقط رأسى من كفى إلى المنضدة التى تمددت عليها وعدت أقول :
أعطنى حقنة بنج أخرى . . بل أعطنى كل ما عندك من البنج . . أعطنى
حقنة فى قلبى . . فى عقلى . . بل أعطنى حقنة فى أسرتى بل فى حياتى
كلها . . ماذا تعمل أيها الطبيب ؟ أنت تنتزع أحد أظافرى من أحد
أصابعى . . ليس هذا هو الظفر الوحيد فى جسمى . . انزع كل أظافرى
... هناك أظافر أخرى فى حياتى . . وكلها توجعنى . . فى عيني وفى يدي

وفي رأسي . .

وكان الطبيب يضحك والمرضون يضحكون وأسمع أصواتاً تشبه الكلام . . ولكنني غارق في ألم وعرق وخوف وبأس .

وعدت أقول للطبيب : اعفني من حياتي كلها يا دكتور . . هل تعرف ماذا أعمل . . إنني كعامل التليفون . . إنني أرد على مئات النداءات مئات المتاعب . . كلها تتراحم على رأسي في آن واحد . . تصورياً دكتور هذا يحدث كل يوم . . اعفني من هذه المكالمات . . حطم هذه الأجراس التي ترن وتئن . . اقطع الحرارة . . اقطع النور . اقطع الماء . اقطع أظافري وأصابعي وحياتي كلها . .

لا أدري كم من الوقت مضى وأنا أصرخ ولا أدري ما أقول . . ولا كيف عدت إلى بيتي . . ولكن بعد ساعتين تماماً دبت الحياة في أصبعي . . تفجر الدم . . والألم . . والدموع وأحسست بالمشارط والسكاكين والطبيب والمرضون كلهم يتراحمون في أصبعي ووراءهم وأمامهم ملايين من النمل والنحل . .

وظللت أرميهم جميعاً بأقراص مسكنة . . واختفى الطبيب والمرضات وذابت المشارط والسكاكين ولم يبق إلا النمل والنحل . . ظللت ساهراً معها حتى الصباح .

إنها شكة إبرة ! !

هذه الليلة لك !

يا أى إنسان هذه الليلة لك ! . إن كنت حزيناً اضحك . إن كنت سعيداً اضحك .

اضحك قبل أن ينصحك الأطباء بالاعتصام فى تحريك الشفتين والعينين . اضحك فزماننا ملىء بالهموم . إننا غيرنا الدنيا حولنا ولم نتغير .. إننا نقطع المسافة بين القطب الجنوبى والشمالى فى ثوان ، ونحتاج إلى سنوات لكى نصل من قلب إلى قلب . إن عقولنا فى العشرين ، وقلوبنا فى التسعين . إننا لم نتغير ، فما نزال نبكى عندما نولد . ونظل نبكى مدى الحياة .. ويبكى الناس علينا بعد أن نموت . فأنت ترى أننا نقرض دموع الآخرين ! .

هذه الليلة لك . لا تسأل عن المناسبة ولا تسأل من هو صاحب المولد . إنه أنت وكل الناس . وفى استطاعتك أن تولد الليلة دون بكاء . اخرج من البيت ، إلى أى مكان وفى أى وقت . ستجد الناس كلهم هناك فى انتظارك فى أجمل ملابسهم وأجمل نسائهم . هناك الموسيقى والطعام والشراب . املأ حياتك بهم . انظر إلى وجوه أخرى غير وجهك ، واستمع إلى أصوات أخرى غير صوتك . اخرج من ملابسك من جلدك الحقيقى وجلدك الزائف .

هل تعرف الجلد الزائف الذى نصنعه جميعاً؟ إننى لا أريد أن أضيع وقتك وأن أشغلك عن الخروج إلى الشارع أو إلى أى مكان . . لن أستغرق إلا دقيقة واحدة . . أنت تعرف أن الحداد له يد غليظة وأن الفلاح له قدم غليظة ، وأن بائع العرقسوس ينحنى إلى الوراء ، وأن السقا ينحنى إلى الأمام . . إنهم جميعاً يتأثرون بالعمل الذى يعملونه . إن هذا العمل يترك أثره فى أجسامهم وفى نفوسهم ، وكل إنسان كذلك . فالعمل يضغط علينا . انظر إلى الخاتم فى أصبعك انظر إلى « جلدة » الساعة فى يدك . . إنها تركت أثراً يبقى بعد نزعها من يدك . . فتصور أنت أن هناك مليوناً مثل « جلدة » الساعة قد غطت أيدينا وأرجلنا وقلوبنا وعقولنا ، ليلاً ونهاراً . .

وهذه الليلة يجب أن نلقى بها بعيداً ، أن ننساها . يجب أن تأخذ إجازة من نفسك من جلدك الزائف . . أن تكون اليوم إنساناً لا موظفاً ولا عاملاً . فأنت نسيت أنك إنسان ولم تعد تذكر الاسم المكتوب فى بطاقتك النقابية وبطاقتك المصلحية . . أنت شىء آخر ويجب أن تتذكر هذه الليلة أنك كائن آخر .

أنت الآن بين الناس . أنت الآن نقطة فى بحر حى . ليس هذا هو المهم . ليس المهم أن يكون الناس معك .

ولكن المهم أن تكون أنت مع الناس . فمن الممكن أن أتطلع إلى الناس ولا أراهم لأننى سرحان أو لأننى أعمى ، ومن الممكن أن أحضر حفلة موسيقية فلا أسمعها لأننى أطرش أو لأن هموماً داخلية تملأ أذنى بالقطن .

فالمهم أن أشعر بالناس ، أن أفتح لهم نفسى ليدخلوا ويضحكوا ويملئوها ويملئوني . إن الطيور تسبح فى الماء ولكنها لا تبتل لأن ريشها مغطى بالزيت والذين يسبحون يغطون أجسامهم بالشحم حتى لا تبتل أجسامهم . . إنهم فى الماء لا يشعرون به . . وأنت فى الناس ولن تشعر بهم إلا إذا نزلت هذا الشحم بل هذا الريش كله . . وإلا فأنت الأطرش فى الزفة . . وإلا فأنت السقا الذى لم ينس قربته يوم زفافه فحملها على صدره وراح يوزع الماء على المدعوين ونسى عروسه . . فإذا هربت منه العروس فهى على حق ، وإذا ضحكك منه المدعون فهم على حق أيضاً . الليلة لك . فانس قربتك . وتذكر عروسك . والناس حولك . ولا تفكر أبداً فى المناسبة التى من أجلها يفرح الناس هذه الليلة . اضحك . اشرب . ارقص . فإن الموت قريب . والناس يموتون فجأة فلماذا لا تعيش فجأة ؟ لماذا لا تضحك فجأة ؟ لماذا تسأل الناس أو حتى نفسك عن المناسبة التى يحتفل بها العالم كله ؟

اضحك بلا سبب بلا مناسبة . . سيكون لديك وقت لتعرف السبب والمناسبة فيما بعد

وإذا كان لا بد أن تعرف المناسبة . . فالיום هو الكريسماس . . ومن أجل ذلك يحتفل أتباع موسى وعيسى ومحمد . فى هذا اليوم ولد أحد دعاة السلام على الأرض . وكان مصيره هو نفس مصير دعاة السلام : العذاب والهوان والسخرية .

اليوم يحتفل الناس بذكراه . . فيشربون نبيذاً فى لون دم المسيح ،

وبصايون بصداع كالمسامير التي دقت في رجليه ... ثم على أحزانهم
وهمومهم السلام . . وفي نفوسهم المحبة !

لا تنظر في ساعتك . . فلدينا كثير منها في كل يد وفي كل حائط
وفي كل ميدان وفي كل صحيفة . ولكن انظر إلى وجهك في عيني الفتاة
التي تجلس إلى جوارك . . وعش معها . فالناس لا يعيشون إلا معاً . .
ولكن عندما يموتون ، يدخلون القبر فرادى . .
اضحك ، فهذه الليلة لك . . ولا تتذكر شيئاً من هذا الكلام !

دماغنا !

إذا كان مش عاجبك روح اسكن في الزمالك ولا في جاردن سیتی ..
مالناش نفس وإلا إيه . . مش كفاية الی احنا فيه .

هذا كلام يقال للذين يحتجون على ارتفاع صوت الراديو بعد منتصف
الليل في بولاق ، أنا شخصياً لا أحتج . . . لأننى أعرف هذا الرد مقدماً .
ولأننى لا أكون في البيت عند منتصف الليل ، فأنا أهرب من الساعة
عندما تدق ١٢ مرة . . وأعود إلى البيت بعد ذلك بساعات . . وهناك
سبب آخر وهو أنه من الصعب أن يرى الإنسان اثنين يتعانقان عند
منتصف الليل حتى لو كانا عقرى الساعة . . لذلك أرجع مع الساعات
الصغيرة من الليل . . .

فهل عندك سبب لكى تفتح الراديو فيصرخ ويملأ الدنيا زعيقاً
ونعيقاً ؟ طبعاً قلة ذوقك وعدم تقديرك لشعور الغير حولك . . كأن
العمارة التى تسكنها ليس فيها أحد سواك وكأن ذوقك هو ذوق الناس
كلهم .. وكأنه لا أحد مريض ولا أحد يعمل ولا طالب يذاكر فليس
على الأرض سواك . . .

عندك سبب لاستخدام الميكروفون في أية مناسبة . في فرح أو في
ماتم . طبعاً النفخة الكاذبة والتباهى والادعاء .

أنت عندك فرح . . أنت عريس . فما ذنب الناس يا أخى . .
 أنت سعيد بعروسك فبالرفاء والبنين أيها العريس . ولكن من قال إن
 سعادتك هذه واجب على كل إنسان . . ؟ على كل رجل وكل امرأة . .
 وما معنى أن يكون عدد المدعوين عشرين أو ثلاثين ثم تضع ميكروفوناً
 خارج البيت ليصبح عدد المستمعين مئات بالقوة ؟ . إنهم فعلاً مئات
 ولكنهم يلعنونك أنت وعروسك . . .

عندك ماتم . ليكن . البقاء لله ! وكل إنسان سيموت . ولكن من قال
 لك إن فقيدك هو فقيد الناس جميعاً ؟ من قال لك إن حزنك هو حزن
 البشرية . . . إن أحداً يا سيدى لا يعنيه أمرك . . أبداً . هذه حقيقة .
 إن حياتنا كقطار الصعيد . . ونحن أشولة . . ومقاطف وصال تتساقط
 على طول الطريق . فلا يدري بنا أحد والقطار يمشى . ويجب أن يمشى
 سواء كان عندك ميكروفون واحد أو مليون . ما ذنب الناس ؟ ما ذنب من
 لا يهتمه أمرك ؟ ما ذنب الذين ليسوا من دينك أو من عائلتك ؟ وإذا
 كان عدد الذين جاءوا لتعزيتك ٢٠ أو ٣٠ فلماذا الميكروفون ؟

كل شيء في بلدنا زعيق . . الكلام والسلام والحناق والأفراح والمآتم . .
 عندك سبب لهذا كله ؟ طبعاً هناك سبب وهو أن المتدينين أو المتحضرين
 هم أقل الناس ميلاً إلى الضوضاء وأكثرهم ميلاً إلى الوحدة إلى العزلة .
 كلما أحب الإنسان الهدوء كان متحضرأ . كل الذين سافروا إلى
 سويسرا لا يسمعون في شوارعها أى صوت . أى صوت . وعلى الرغم من
 هذا الهدوء التام تجد في الشوارع لافتات مكتوباً عليها : منطقة صمت . .

أى صمت يريدون هناك ؟ لا بد أنهم يريدون منا أن نكف عن التنفس من أجل المرضى والطلبة . . ولأن هناك حرية أخرى غير حرية الكلام هى حرية الصمت . . من حق كل إنسان أن يصمت وأن يستمتع بسكونه . فلا يجب أن نخرجه من صمته . كما أنه لا يجب أن نخرج لسانه من فمه فيتكلم بالقوة . . ولا يجب أن نفتحم عليه هدوءه . . أنت حر فى أن تتكلم ولكن بشرط ألا تعتدى على صمت غيرك . . حرية عجيبة لا نعرفها فى بلادنا .

إن الميكروفونات تشبه « البخاخة » التى تطارد بها الصمت كأنه ذباب أو بعوض !

وليس أسهل من أن تتحول من البدائية إلى الحضارة . . بسيطة جداً . بأصبع واحدة تستطيع أن تدير مفتاح الراديو . ويبدك تستطيع أن تنزل الميكرفون . . فكل ما يسرك أو يحزنك خاص بك أنت وحدك . . واحنا ما لنا يا أخى . . !

تحت أقدامنا

أبناء شارعنا ، لا ينظرون إلى فوق . . ففى ذلك خطر عليهم ، ففى الأرض حفر وفيها بالوعات وطوب وفيها أطفال صغار وعليها خضراوات وليمون وطماطم وتتساقط عليها أرغفة من الخبز . . وقد يصطدم الإنسان ببائع لبن أو يرتطم بتلميذة فى طريقها إلى المدرسة . . وقد يسمع من حين إلى حين : فتح يا افندى . . يا فتاح يا عليم . . صبحنا وصبح الملك لله . فالنظر إلى الأرض أحسن وأريح . .

وفوق . . فيه إيه ؟

لا شىء . . فوق مثل تحت . . ناس فوق بعض . . ثم فوق إيه ؟ فوق الأسطح أسوأ جداً من الشارع . . وأسوأ من الناس اللى تحت . . أسطح البيوت مليئة أيضاً بالحفريات والمطبات والتراب والعفونة . . وليس فوق إلا الفراغ . . بلاليص فارغة وصفائح وصناديق . . وقوالب طوب وحجارة وأعواد حديدية ، وطيور وأرانب . . ليس فوق إلا الفراغ وإلا « الفوارغ » . . وأسطح البيوت لا يسكنها إلا عدد قليل جداً من الناس . . لأنها كالقسم . . ضيقة منعزلة باردة . . إن قمة الهرم العظيم ضيقة جداً . . منعزلة باردة . . الصراخ ينتهى إليها كهمس ، الأشياء تبدو منها ضئيلة جداً ، والرجال يبدون فى حجم الأطفال ، والأطفال فى حجم الققط . .

عندما تنزل الأمطار تتسخ أقدام الناس الذين تحت ، أما الذين
فوق فتسخ رؤوسهم . عندما تحدث الزلازل يهرب الذين فوق إلى تحت ،
إلى حيث يعيش الناس ، إلى حيث تكون الضوضاء غطاء وغذاء لهم . .
لقد أقبل الصيف . . وأقبلت السهرات الطويلة فوق . . فوق الأسطح
بين الكلاب والمقطط والعرس والشعابين . . وأقبلت المشاجرات بعد منتصف
الليالى . . والصرخات النائمة ، اقفلى الراديو يا جدع يا لى هناك . .
اسكت . . انت مالك . . أنا مش عارف أنا . . روح نام فى الزمالك . .
نامى يا ولية . . أدينى نائمة . . الناس يقولوا إيه . . يقولوا إيه بنسرق . .
ما لهم الناس . . انت يا لى رميت علينا الحية . . الله يلعن ويحرب
ويحرق . . إلخ .

• • •

ونحن أبناء هذا الشارع لا نعرف أين سنتجه بأنظارنا إذا قامت بلدية
القاهرة وسدت أفواه الحفر ، وأحكمت غطاء البالوعات ، وجمعت
الأطفال من الشوارع وأجلست بائعى الليمون على مقاعد . . لا نعرف . .
فقد تعودنا النظر إلى ما تحت . . تحت أقدامنا !

بلا أسف !

مرضك مسألة شخصية . . . تعبك حكاية تخصك أنت . . . عذابك كدموعك لا تدخل عيون الآخرين . فمن الذى يخفف عنك المرض ؟ الطبيب ؟ ممكن . إنه يضع يده على جسمك ، يحاول أن يقرأك على طريقة برايل ، ويضع أذنه على صدرك على ظهرك ، إنه يستمع إلى إشارات تلغرافية يبعث بها قلبك ويحاول أن يفكها ويخرج من جيبه ورقة ويكتب خطاباً إلى الجيوش التى تحارب فى دمك . . . إلى الجراثيم والكريات البيضاء والحمراء . . . يطلب إليها أن توقف القتال وإلا . . . لأنها كالرسالة التى ألقاها عمرو بن العاص فى النيل يطلب من النيل أن يمتلئ بالماء . . . وتكون النتيجة طبعاً ألا تتوقف المعركة . فيلجأ الطبيب إلى العنف ، إلى استخدام الأسلحة والمواد المتفجرة والمواد السامة التى تقتل الجراثيم وترهق المريض أيضاً . ولكن الطبيب لا يدخل له بعذابك ، ستظل تتعذب كما أنت . إن العذاب لا ينتقل إليه . . . فإذا نجحت « وصفة » الطبيب ، فإنه يشعر بالارتياح لأن تشخيصه للمرض كان دقيقاً . وإذا لم تنجح هذه الوصفة ، حاول وصفة أخرى . . . وثالثة ورابعة . . . وإذا ظهرت أعراض جديدة لمرضك فعنى ذلك أنك شىء غريب . وليس على الطبيب إلا أن يعود إلى كتبه . . .

ويبقى عذابك كما هو ، والمعركة دائرة في الدم . لأنها تخضع لقوانين
أخرى ولتفاعلات لا شأن لها بالطب وعلمه وتجاربه وارتياحه وعدم
ارتياحه . . .

والناس الذين يحبونك مثلاً . . .

قد يكون مرضك مرهقاً لهم . هذا طبيعي . فانت لا تعيش وحدك .
أنت تعيش في بيت وفي مكتب وفي مجتمع . ومرضك سيحدث بعض
الارتباك ، تماماً كما تتوقف السيارة في الطريق . ولكن سيمشي المرور
بعد ذلك . وتظل أنت على جانب الطريق . إلى أن تتحرك من جديد أو
تفسح مكاناً لغيرك . . في الطريق أو في الحياة كلها . .

هؤلاء يجلسون حولك . يرونك تتقلب يميناً وشمالاً . كأنك سيجارة
تلفها يد قوية في ملاءة بيضاء أو في بطانية غليظة . . ولكنك تظل تنألم
أيضاً . فالألم يشبه الراديو المفتوح ، سيتكلم سواء استمع إليه أحد
أو لم يستمع إليه أحد . إن الألم ليس كالزكام ينتقل بالعدوى . إنه
تفاعل داخلي . لأنهم يمدون أيديهم لك ويعودون بها كما كانت سليمة ،
سترى التأثير في عيونهم ولكن هذا التأثير ستراه عليهم أيضاً عند سماع أغنية
حزينة ، وعند مشاهدة فيلم حزين . كل إنسان لديه الكثير من المتاعب
والآلام التي تراكم بعضها فوق بعض . وتظهر في أية فرصة . . أية
مناسبة . . ومرض حضرتك هو الفرصة السعيدة ، التي تهتز لها نفوسهم
وتدمع لها عيونهم . . كما يحدث في الزلازل والبراكين . . فني باطن الأرض
نيران والنيران لها بخار من الغازات ، يظل حبساً حتى يجد مكاناً ضعيفاً

في قشرة الأرض فيحطمه . . وترتجف الأرض ويتصاعد الغاز ويهبط المطر . . ومرضك هو هذه القشرة الضعيفة في هذه العلاقة بينك وبينهم . . ولكن يبق عذابك كما هو . . .

وأخيراً أناس عزيزون عليك . . أمك . . حبيبك . . زوجتك . . ستراك الواحدة منهن فتبكي لحالك . . أو تبكي عليك . . ولكن دمائك تغلي ، وحرارتك عالية . . والمعركة دائمة . . لأن المتحاربين عريان وصم وبكم وحيوانات لا تفهم ولا ترى ولا تسمع ماذا يدور خارج جسمك . تبكي الأم وتتعذب جداً لك . . ولكن يبق عذابك كما هو . . فلا علاقة أبداً بين تأثيرها لك . . وبين مرضك . . إلا كالعلاقة بين زكامي الآن وبين عدم وجود فلوس معك الآن . . وقد تتعذب أنت لعذابها وخصوصاً أن التي تحبك وتحبها شبائع جداً في آلامك وتعبك . . وترى الزكام اختناقاً وترى الصداق موتاً محققاً . . وعذابها سيعذبك . . ولكنك لا تستطيع أن تخفف لها عذابها ، ولا هي تستطيع أن تخفف لك عذابك أبداً . .

بل إن الإنسان أحياناً يحس أن الذين يحبهم كأستانه وضروسه التي يأكل عليها ويعيش بها . . وأحياناً توجهه هذه الأسنان ويتألم لها ومنها . . ويتمنى أن تقتلع الأيام كل هذه الأسنان . . ويضع مكانها طقمًا من الأسنان الصناعية حتى يريح ويستريح . . حتى لا يتعذب لعذابهم ، وحتى لا يعذبهم عذابه . .

ومع ذلك ، وأنت تتألم ، سيقى الملك مثل جلدك لا يتسع لأحد غيرك . . لأن مرضك هو معركة بين الكرة البيضاء والكرة الحمراء

والجراثيم والأملاح والفيتامينات والبناء والمهدم .

لا أحد « يشاركك » في ألمك . . بالنصف أو بالربع أو بالعشر

لا أحد « يقاسمك » وجعك . لأن الألم كالموت يتلقاه الإنسان وحده !

صدقني ، لقد جربت ذلك . . وبلا أسف !

خيوط قصة

البطل شاب فى السابعة والعشرين من عمره . طويل أسمر وطيب ،
نخرج حديثاً ويتمرن فى عبادة طيب كبير . وهو طيب القلب . فيه
رجولة وشهامة ، وله مبادئ يتمسك بها . . والبطلة سيدة فى الأربعين
من عمرها لها أولاد . وزوجة الطيب الكبير . وكانت زوجة قبل ذلك .
وأحبت هذا الطيب الكبير . وتركت من أجله زوجها الأول . وهى سيدة
جميلة . رأت هذا الشاب والتفتت إليه ، بعقلها وقلبها وأحبتة . وأحبها
الطيب الشاب .

أما الأسباب التى أدت إلى هذا الحب أو هذا الميل . فهى أن
الطيب الكبير قد أصبح مشغولاً عن زوجته . ليس مشغولاً بعمله ، ولكنه
مشغول عنها بتساءل أخريات ، ولا ينجل هو أبداً من ذكر هذه الحقائق
ولكن الزوجة تحبه ، وتعرف نزواته ، وتعرف أنه مرهق وأن التغير أمر
ضرورى للزوج . وأن الزوجة التى تريد أن تغير طبيعة الرجل وخصوصاً
إذا كان طبيباً فناناً ، كزوجها ، فإنها تطلب المستحيل .

وأحست الزوجة شيئاً آخر . أن زوجها حريص على إهانتها أيضاً .
أمام أصدقائه وأمام صديقاتها . وأن الغرض من هذه الإهانة هو لذة
تعذيبها . فهذه لذة شاذة عند الزوج ، قد ظهرت أخيراً ولم تكن تعرفها
من قبل . لقد كانت تجد هذه اللذة على صورة بخل شديد . فهو

حريص على أن يتلذذ لصراخها وهي تطلب منه المال لشراء الملابس
والسفر وتغيير أثاث البيت . وكان يجد لذة في الرفض .

فإذا رآها بملابس ممزقة ، وكذلك أولاده . . كانت هذه لذة تفوق
لذة الجنس عنده . .

ولاحظت أيضاً أن زوجها يدفعها إلى أشياء أخرى ليست كريمة . .
إنه يعرضها على أصدقائه ويغريهم بها . فإذا صدقوه ثار على الزوجة ،
وتلذذ بعذابها وأمعن في تعذيبها . . وأحست الزوجة أن الطبيب الكبير
كما كانت تراه فهو كبير عندما يجرى عملية جراحية وهو يتقدم الأطباء
جميعاً في غرفة العمليات . ولكن عندما يجيء إلى البيت ، فليس طبيباً
ولا ممرضاً ، بل هو مريض ، ومرضه لا علاج له . . إنه ليس كبيراً
في نظرها . وإن كان هو عظيماً ومشهوراً في عيون الناس .

إنه ليس كبيراً عندما يأكل وعندما يجلس إليها وإلى أولاده . .

إنه إنسان عادي جداً ، بل أخط من الإنسان العادي . .

ورأت هذا الشاب . . إنه شيء آخر .

إنه شاب ، هو الآخر مخدوع في الطبيب الكبير . إنه يراه كبيراً . .

وأخذت الزوجة تروى للشاب كيف أن زوجها هذا ليس شيئاً

إطلاقاً . . وأنه سافل وأنه منحط وأنه بخيل وأنه مريض وأن فيه وحشية

الجرائم الفتاكة .

وبدأ الشاب هو الآخر يتحرك . . في هذه القصة . .

إنه يحب هذه السيدة الجميلة . إنه هو الآخر بلا تجارب . إنه

خجول ويتهيب الزواج من أية فتاة شابة ، تقرأ المجلات وتذهب إلى السينما وتعرف الرقص وأحبت قبله عشرات الشبان . .

أما الآن أمام سيدة . . هذا أفضل وأحسن .

وهي سيدة معروفة عظيمة . إن عشرات من مشاهير الرجال يطمعون فيها ويتمنونها لأنفسهم . وهو يكره أستاذه هذا فهو رجل أناني . وهو لا يطلع على كل أسرار . وجبه لزوجته انتقاماً منه وانتقاماً لها أيضاً . وزواجه من هذه السيدة . هو انتصار وانتقام معاً .

إن هذه السيدة قد فتحت حواسه جميعاً . . لقد تحولت حواسه إلى أكف ضارعة . . تنتظر ما يملؤها . وكانت هذه السيدة تملأ حواسه . لأنها امرأة قد جربت الحياة وعرفت الرجال ، ولعلها هي الأخرى قد قررت أن تتزوج هذا الشاب .

وبدأ الشاب يفكر ، أو يتراجع .

وكان تفكيره على صورة نديم . لأن ضميره قد صبحا .

فهو يقساعل : لماذا قررت الزواج منها ؟ لأنها قررت الانتقام من زوجها والانتقام دفعها إلى أن تتزوج أحد تلامذته .

إنه الانتقام إذن ، وليس الحب . وجعل يقول أيضاً : ولكني سأكون نحائلاً وجباناً ، إن الرجل قد اتهمني على زوجته ، فإذا بي أخوله وأخونها . نعم أخونها أيضاً فإن ابنها الكبرى تحبني وقد وعدتها بشيء كالصداقة أو كالزواج . ولا بد أن الفتاة الصغيرة قد صدقتني . وإذا كنت أنا ألهو وألعب فإن هذه الفتاة جادة ، ولا أريد أن أكون هذا الخادع

الحائن في بيت واحد . . وفي بيت أستاذي الطبيب الكبير . .
ولكن الزوجة تبكى وتقسم أنها تحبه ، وأن الذي تشعر به هذا ليس
انتقاماً . ولا هي رغبها في فضيحة الزوج ولا في أن يتحدث عنه الناس .
ولكنها تريد أن تكون زوجة للشاب الذي أحبه ، وأنها ستصحي
بالطبيب العظيم وشهرته ومجده ، من أجل حبها .
ولكن الشاب يسأل نفسه : أليس هذا هو نفس الكلام الذي قالته
يوم تزوجت الطبيب العظيم . . أليست هي نفس الكلمات ؟ وماذا
كانت النتيجة . .

وأحس الشاب كأنه ثعبان كبير ، وكأن خيطاً صغيراً قد دخل فيه
ثم كسر أسنانه كلها . . وأصبح ثعباناً بلا أسنان . . ثعباناً لا يلدغ
ولا يقتل . لقد فوجئ الشاب بأن قصته هذه قد عرفها كل الناس والذي
قال للناس هو الزوجة . لقد تحققت الفضيحة إذن . وعرف الطبيب
الكبير ذلك . وتحقق الانتقام أيضاً . وعرفت الفتاة الصغيرة خداع
الطبيب الشاب . وحدثت النذالة أيضاً .

وكان على الثعبان الشاب أن يمضغ الخيط الذي تكسرت به أسنانه .
وأن يلزم جحره . . ويتنظر الأبطال الآخرين لكي يكملوا قصته . .
فقد قرر هو أن يختنق عند النصف الأول منها . .

ولكن الانتقام والانتصار والعطف والشماتة ، ما تزال تتردد في أذنه عند كل
مرة تتحدث إليه هذه الزوجة في التليفون في الساعات الصغيرة من الليل . .
ولم تكمل القصة بعد .

حياة . . كلها طوب

أعصابي هذه الأيام كالأسلاك الشائكة والشوك قد اتجه إلى لحمي
ودمي . . إن هذه الأسلاك لا أستطيع نزعها مني ، إنها تشبه جلد القنفذ
الذي لبسته بالمقلوب . . وفي كل ليلة تدور المعارك تحت نافذتي . . .
أصوات وصراخ . . وكلها تنزل فوق دماغى كالطوب . وكل طوبة
توجع لأنها تدق شوكة في جلدي . . فأقفز من فراشى إلى النافذة أقتش
عن مصدر الصوت الذى أسمعه ولا أراه . . إنهم ناس قد تمددوا فوق
الأسطح بين الأقفاص والصفائح والبلاليص . . إنهم كالزواحف ،
حياتهم تراب ، ووجودهم زبالة ، وكلامهم طوب . . وأحياناً أقف
أبحث عنهم . . إننى لا أحسدهم على نومهم العميق . . حتى نومهم له صوت
يشبه صوت الضفادع وقد انحشرت في أفواههم . . إننى لا أقوى على
مقاومة هذا الطوب . . لا ياقفال النافذة ولا بوضع المخدات فوق رأسي . .
فهو كالقضاء والقدر . . إنه طوب كالصواريخ الموجهة لى وحدى . . ولا
أملك إلا أضعف الإيمان وهو مقاومة الطوب باليد واللسان ، أى بالكتابة !
وتبدأ المعارك الليلية بهمس خفيف يشبه أقدام الجنود وهم يمشون على
بطونهم في الخطوط الأمامية . . وبعد ذلك تندلع النيران . . فتنتطلق
« عرسة » صغيرة بين الدجاج . . وتطاردها عبارات عالية . . حوش
يا جدع . . امسك عندك . . يا بنت ال . . .
والكلام يتجه أول الأمر إلى العرسة . . ثم إلى الزوجة النائمة . . ويهدد

الزوج بإلقاء أولاده من فوق السطح . . وتنفتح النوافذ المجاورة . . ويد
الجيران بإلقاء كلام كالْحجارة : يا راجل نام . . يا أخى خليلك للصباح . .
الصباح رباح . قلقتم نومنا . . الله يخرب بيوتكم . .

ويتخلى الرجل عن شنيمة زوجته ويتحول إلى ما هو أهم . . إلى شنيمة
أصحاب النوافذ . . وتنفتح نوافذ أخرى . . وتترشق النوافذ والأسطح
بالشتائم وتتكرر بعضها على بعض - كما يقول الشاعر المتنبي . . وفي
الأرض يعلو صوت عسكري الدوارية وهو يقول : مين هناك . . يا ناس
اتهدوا . . حد لاقى نوم . .

ويعود التشابك بالشتائم : وأنت مالك . . مالى ازاي . . ناموا . . نام
أنت . . . اسكتوا . . اسكت انت . . هو ده حى يا ناس . . روح اسكن
فى جاردن سیتی . . اخرس . . اخرس انت !

. . . وأنا أيضاً ! وقبل أن تصبغ الشمس الأفق بلونها الأحمر ،
يكون الأرق قد سبقها إلى صبغ عيني . وقبل الفجر بساعات تبدأ
مظاهرة من نوع غريب . . . كل فجر ياناس . . يمر رجل صوته
كحجر الطاحون الذى يدور على قمح نصفه من الزلط . . وينادى :
يا سى عبد الله . . ياسى اسماعيل وجدوه ! .

إنه يناديهم للصلاة . . ويتكرر النداء عشرات المرات ، كأنه يريد
أن يتأكد من أن الناس جميعاً قد قاموا من الفراش ليشهدوا على تقواه
وعلى ورعه . . وتجاريه أصوات عبد الله وإسماعيل وهي مترددة بين
النوم واليقظة ، بين الطاعة والعصيان ، بين لعن أبيه والاستسلام . . .

ولا أستطيع بعد ذلك أن أنام دون أسمع صوت بائع الفول . . إنه شاب
بلدى أنيق . . له شارب يقف على شعرة واحدة . . وله طاقة قد استقرت
على جانب واحد . وينادى هكذا : يا حلاوة اللوز . . والنبي ما نام الليل . .
سهران . . النوم للعواجيز . . قول شباب قوى . . اللوز .
وحضرته بما كس ابنة الجيران التى لا أعرف لها مكاناً . . .

والضياء والضوضاء تزداد كلما ارتفعت الشمس . . وكلها تتلاشى
مع انطلاق الترام الذى يحاول اقتلاع القضبان والعجلات كل يوم . .
كأنه يريد أن يجرى على الأرض خافياً بلا عجلات ولا قضبان . . وكل
يوم أقسم أن أترك هذا البيت . . ولا أزال عند قسمي منذ عشر سنوات . .
وأنا لا أستطيع أن أضع القطن فى أفواه الناس . . ولا أستطيع أن أعطل
الورش الناجحة التى تدق الحديد الساخن والحديد البارد تحت نافذتي
فى « أخبار اليوم » . . التى تجعل من رأسي سنداناً ليناً . . وأظل أرزح
تحت الحديد طول النهار ، ويظل قلبي يرزح تحتي ليلاً ونهاراً . . إنه
عكازي الذى أهش به على غنمي . . فإذا جاءت غنمي عرجاء أو
مكسحة فلأنني أنام فى بولاق وأعمل فى عشش الترجمان . . ولأن حالي
ينطبق عليه ما تقوله أغنية صباح : طوب يا قلبي . . طوب يا قلبي طوب .
وكل ما أستطيع أن أعمله هو أن أضع القطن فى أذني لأنعم بالهدوء الذى
كان يعيش فيه العبقرى الأصم أديسون ، مخترع المصباح الكهربى . . .
وهى خطوة إن شاء الله فى الطريق الذى تربيع فى نهايته الأنسة هيلين
كيلر . . . العبقرية الأخرى التى لا تسمع ولا ترى ولا تتكلم !

الفكرة التي طاردتني

كنت على موعد مع غروب الشمس في الإسكندرية . وأنا حريص على المواعيد وخصوصاً إذا كان هذا الموعد مع فتاة . والشمس ما تزال أجمل فتاة في عالمنا ، إنها حواء الأولى . . إنها مصدر حياة كل حواء وكل آدم ، وكل حواء في النبات والحيوان . . إنها أول كل شيء في عالمنا الصغير . . وانطلقت من القاهرة على عجلات سرعتها مائة كيلو متر . . وكنت أجلس إلى جوار عجلة القيادة . . وبدأت السير بهمة وحماسة وأعراض ملل وأعراض خوف ولكن حاولت أن أنسى هذا كله والنفت إلى الطريق أمامي . وإلى جوارى جلس صديق هادئ لا يتحدث إلا قليلاً . . وفي المقعد الخلفي جلس صديقان . . أحدهما يدخن صامتاً . . والآخر ينام كطفل بلا هموم ولا متاعب . . وهكذا بدأت رحلتنا هادئة سريعة . .

وفجأة قفزت إلى رأسي فكرة سخيفة . . . فكرة مؤلمة . . . وأحسست كأن ذبابة دخلت عقلي . . وراحت تزن وتطن . . ولا أدري كيف أطردها ولا كيف أقتلها . . ورحت أطردها بأفكار آخر مضادة . . كأنها « الفليت » أو ال د. د. ت . . ولكن الذبابة لم تسكت ولم تكف عن الحركة وعن خربشتي من الداخل . . الفكرة هي : أن قلبي حاسس أننى سأموت

في هذا الطريق . . .

وأخذت الفكرة تقوى وتقوى . . . ولم يحدث لي هذا أبداً . وقلت لعل رادار القلب قد أحس بشبح الموت وهو على بعد دقائق أو أميال مني . . هل أرجع ؟ أرجع إلى أين ؟ . . لا هرب من الموت . لا هرب منه وأحتمي بمن أو بماذا ؟ هل أعود بهؤلاء الأصدقاء الذين بدأوا يضحكون ويمزحون وكأنهم يعرفون ما يدور بخاطري ؟ .

وتساءلت : ولماذا جاءت هذه الفكرة ؟ ومن أين ؟ هل أنا متعب . . . لأنني فعلاً لم أنم ليلة أمس . هل أنا كاره لهذه الرحلة . فعلاً أنا أكره قيادة سيارتي مهما كانت المسافة . . وهذه المسافة طويلة وسخيفة ومهلكة . . إذن التفكير في الموت هو تفكير في الهرب التام من هذه الرحلة ومن أي شيء آخر . أو أن هذه الفكرة هي فكرة مستجدية . . فكرة متسولة فكرة تريد أن تستدر شفقة هؤلاء الأصدقاء لكي نعود إلى القاهرة بدلاً من السفر إلى الإسكندرية . . وجعلت أسأل نفسي وكيف يكون الموت في هذا الطريق ؟ سيكون بأن تتزلق سيارتي على الرمال فتقلب . . وتكون نهايتي . . وحياة هؤلاء الذين يضحكون . . أو بأن نصطدم بأية سيارة أخرى . . أو بأن أموت أنا وحدي دون رمال ودون حوادث . .

وكأنني أقاوم هذا كله . . بدأت أعتدل في جلستي وأتنفس بهدوء . حتى يبني القلب نشيطاً يدي . . ومددت يدي إلى الراديو ففتحته . . لأرفع روجي المعنوية . . ثم خففت من السرعة وانتهت جيداً إلى حافة الصحراء . . وإلى السيارات القادمة . . فكل سيارة هي قذيفة موجهة إلى . .

موجهة نحوى أنا بالذات . . وأنا أعرف من الذى أطلقها . .

وشعرت بعد ذلك أو قبل ذلك لا أدرى . . بشىء من الهوان . . بشىء من الضالة . . فعربنى ليست إلا نملة تجرى فوق ظهر أفعى أسود تمتد من القاهرة إلى الإسكندرية . . وأحسست فعلا بشىء بين الحياة والموت ، بين الوجود والعدم ، بشىء من الضياع . .

واعتدلت مرة أخرى فى جلستى وقلت : إن هذا التفكير فى الموت هو وحده الذى سيجعلنى أموت ، هو وحده الذى سيشغلنى عن القيادة فأصطدم بأية سيارة . . ولذلك يجب أن أطرد هذا التفكير . . أن أنحى عن رأسى هذا الستار . . هذا الضباب وأن ألتفت إلى الطريق . . لكى أموت مفتوح العينين . . .

وكأننى أحسست أننى لم أحقق كل شىء فى نفسى قلت : عندما أصل إلى الإسكندرية سأنزل البحر . . سأستحم . . إننى لم أنزل بحراً فى حياتى . . لم أمد له يداً ولا رجلاً . . إن مياه كاهرى لم توقعنى فى غرامها ولا أمواج دوفيل ولا فتيات كان ونيس . . ولم تعجبني عبارة «عندما أصل» . . فقد وصلت . . هذه الأشجار ، هذه المياه على الجانبين . . هذه الرطوبة . . وضيق النفس . . وباعة التين على الجانبين . . لقد وصلت .

وأدخل فى الشوارع ولا أرى علامات المرور . . ماذا بعد الحياة . . لا يهمنى أن تمتد يد عسكري المرور ويكتب ما يشاء من المخالفات . . إنها ضريبة الحياة . . إنها الفرحة بالنجاة . . ولم أسأل نفسى : النجاة

من أى شىء ؟

وعلى الكورنيش . . أحسست بشىء غريب . . أحسست أن الهواء
يفضل لى ملابس كلها من قماش مبلى . . وأن الهواء كأى ترزى
يستخدم الدبايس لتظل الملابس على جسدى فهو يضع الدبايس فى
كتفى وفى جنبى وفى ظهورى وفى صدرى . . وظللت أنا أتكرمش وأتقلص
حتى صغر حجمى . . ولكن الترزى لا يختصر ملايسه . . إنه يختصرنى
أنا . . فأنا لا أشعر بقدمى اليسرى ولا ذراعى اليسرى . .

وتعبت من الطريق ومن الهواء . . وذهبت إلى غرفتى لأستريح . .
لأستريح من الفكرة التى طاردتنى من القاهرة إلى الإسكندرية . . وعندما
وضعت رأسى على المائدة تنبهت إلى أننى طردت فكرة الموت بالاستسلام
له . . أليس النوم موتاً صغيراً ! !

وهربت الدبابة . . وبدأت أضيق من رائحة الد. د. ت !

حرف اليب !

اليوب - أى اليوم - شعرت أننى كجزيرة قبرص . فهناك حصار شديد حولى . . حصار يخنقنى . . هناك أيد تمسك بعنقى من تحت الجلد . . وإننى لا أستطيع التنفس . . أحسست أن أننى كقناة السويس وأن باخرة قد انفجرت فيها . فأصبح المرور صعباً جداً . . وآمنت بأن التنفس تاج على رؤوس الأصحاء لا يعرفه إلا المزكوهون !

الطبيب يقول لى : لا علاج إلا النوم فى البيت . .

ولزمت البيت وأقفلت الباب والشباك وتغطيت باللحاف . ووضعت رأسى فى طاقة . ووضعت الجوارب فى قدمى . . وارتفاع درجات حرارتى معناه أن هناك مقاومة هائلة فى جسمى وجعلت ألتى بالسوائل والحبوب لقوات المقاومة . . وشعرت أننى أحارب فى خنادق من البطاطين وأننى أنتظر نهاية المعركة . . فكلما شعرت بخيط من الهواء يصلنى بالعالم الخارجى تأكدت أن قوات المقاومة قد شقت طريقاً إلى عالم الحرية . . وكلما أحسست أن الهواء لا يدخل إلا بصعوبة أيقنت أن جزيرة قبرص بسبيل أن تستسلم . . فالمدافع تدق رأسى . ويران البطاريات تلمع فى عيني . . وصفارات الإنذار فى أذنى . . إن هناك مؤامرة على حياتى وإن هناك طاغية يعطينى الهواء بالبطاقة . ستيمر واحد كل دقيقة .

وضقت بظلام الغرفة وبأكداس الأغطية . . مللت حرب الخنادق . ولكن لكى أفوز بالحرية لا بد من القيود ولكى أنعم بالنور لا بد من ظلام

الخنادق . ولكي أعرف قيمة النسيم العليل يجب أن أمر بمحنة الهواء
المحنوق . . هذا ثمن الحرية !

حتى الهواء القليل الذي أمتصه أو أغتصبه بدا يخرج مطروداً على
هيئة سعال . . بل إنه لم يكن هواء بل كان شيئاً ملموساً محسوساً خشناً
كالبرد يأكل حلقى . . ويلقى بنشارة حلقى جبوباً على شفتي . .

وأضع الترمومتر في فمي وأجده قد زحف إلى الأربعين . . وبدأت
أحلم وأفكر في درجة حرارة عالية . . وتخيلت أناساً لا أدري ما الذي
جمعهم في هذه اللحظات العصبية . . أرى وجهاً باسماً . . وأرى عيني
زرقاوين وأسمع صوتاً ناعماً وأعود برأسي إلى الوراء لأقول لها : وداعاً . .
ثم أعتدل في جلستي وأقول : لا وداع . . بل سأقاوم . . سأقاوم ماذا ؟
سأقاوم ذكراها . سأقاوم الطاغية الذي احتبس في داخلي وحبسني .

ولاحظت أن الإنسان في هذه الدرجة من الحرارة لا يفكر في شيء له
قيمة . . كل ما يفكر فيه هو كيف يتخلص من جحيم الحرارة والاختناق .
وبدأت أستعرض وجوه أناس يعيشون في هذه الدرجة الحرارية دائماً
رأيت أديب إنجلترا « جراهام جرين » . . إنه مصاب بنوع من الزكام
الذي يصيبه في مواسم الورد ويفقده متعة الشم . . والأديب الوجودي
ألبير كامو . . إنه هو الآخر كان يلبس أكثر من بلوفر في الصيف وفي الشتاء
يلبس اثنين تحت القميص واثنين فوق القميص ويلبس البالطو أيضاً
ويضيف إليها جميعاً كميات من الحمر تملأ حماماً صغيراً . . ومع ذلك
فهو سيد المفكرين . . وكاتب إيطاليا « كورتسيو ملبارته » كان يقول :

إن هناك أفكاراً لا يمكن أن تذوب إلا في درجة حرارة عالية . . في عاطفة قوية من الحب . . من الكبرياء . . من التضحية . . لا بد من الحرارة وعلى الفنان أن يساعدهما بالوقود . . بالحر أو بالمرض . . ومع ذلك لم أتمكن من « إدارة » فكرة واحدة في رأسي . . كان الإنسان يفكر بأنفه . . والذي قال إن انف كايوبطرة قد غير التاريخ ، لم يكذب كثيراً . . إن أنفي الذي فقد وظيفته أياماً ، قد عطل تفكيري نهائياً . .

والمزكوم لا يستطيع أن يقابل الناس أو هكذا أنا . . . في يده منديل ، وفي جيوبه مناديل وفي عينه احمرار وفي صوته ذبحة وفي نفسه قرف . . ويخشى أن تنتقل عداوه إلى الناس . . ولا زيارات ولا مقابلات . .

ثم انتظار فارغ . . انتظار في الفراش حتى تنهى المعارك في داخله بين جيوش الزكام وبين جيوش الصحة . . ولم يكن أمامي إلا أن أترك نفسي ميداناً وأنشغل عن النتيجة لأشياء أخرى . . أي أشياء . . وقد حاولت أن أتسلى بحذف حرف الميم من كل ما أقوله ولاحظت أن حرف الميم يملأ معظم الكلمات . . وأنها محاولة يائسة . . ولو كنت ملكاً طاغياً وكانت إصابي بالزكام مزمنة لأصدرت مرسوماً بإلغاء حرف الميم !

وأحسن عبارة تصور حالتي الآن بالضبط هي التي تقول : إنني

أقوب بن النوب أناب تاني . وقد اختفى حرف « البيب » نهائياً !

اتس . . اتس : لا مؤاخذه فإنني ما أزال أعطس !

عذاب كل يوم !

كان رأسى ليمونة وأنا أعصرها كل يوم . . . وتبقى الليمونة فلا يتساقط منها شىء . . . ولا أفقد الأمل . . .

كان رأسى ساعة واقفة . . . أهزها لكى تتحرك تروسها وتدور عقاربها . . . فلا أسمع لها صوتاً ولا أياس . . .

كان الفكرة أو الفكرتين اللتين فى رأسى تشبهان « زهر » الطاولة . . . أهزهما يميناً وشمالاً « وأقرص عليهما » ثم ألقى بهما على الورق فلا أجد عليهما أية علامة . . . وأنعكز من جديد على أملى . . .

وأنهض إلى الباب والنافذة وأقفلهما فقد تكون أفكارى كالوطاويط تخاف من النور . . . أو يكون قلمى قد جف ولا بد أن أغمسه فى سواد الظلام . . . وأسمع حولي الهمس والكلام والضوضاء . . . وكلها مختلطة بعضها ببعض وأرفع قلمى إلى أعلى كأنه « إيريال » لعله يلتقط منها شيئاً . . .

وأحياناً أتوهم أن كل الأفكار التى فى الدنيا باقية لا تزول وأنها تملأ الجو وأنها تدور حولي كأنها أسطوانات . . . وهذه الأسطوانات فى حاجة إلى إبرة لكى تنطق . . . وأجعل قلمى هو هذه الإبرة . . . ومع ذلك لا أسمع أى شىء . . .

كل شىء حولي كلام فى كلام . . . الناس ألفاظ وجمل مفيدة وغير

مفيدة . . . وكلها تدخل رأسى بلا ترتيب . . . ويتحول رأسى إلى استوديو تصوير ورسم ونحت . ملئ بلوحات وتماثيل وصور لا أعرف أصحابها . وأحاول أن أميز بينها جميعاً . وليست هذه المقالات إلا صلات تعارف بين أصحاب هذه الآثار الفنية جميعاً . . .

ومشكلتى كل يوم هى كيف أرتبها الواحدة وراء الأخرى . . . فى خيط ، فى حبل . . . فى شريط سينمائى . . . كيف ؟ لا أعرف . ولكن لا أستبعد أن يكون العلم الحديث قد وجد وسيلة لا أعرفها . ولذلك لن أفقد الأمل أبداً . وفى كل يوم أكتب خطاباً بهذا المعنى وأمزقه :

« عزيزى على أمين . . . العلم الحديث الذى نتحدث عنه كل يوم . . . والزراير التى تأتى بالمال والسعادة والراحة والمصانع التى أنشئت لصناعة قطع غيار لعقل الإنسان وقلبه وشحنها بالذكاء والحب والسلام . . . وإيمانك بالتقدم المطلق للعقل الإنسانى ألم يهتد بعد لحل مشكلة مثل مشكلتى هذه ؟ » إن مشكلتى هى أننى أريد أن يخرج الكلام من رأسى كما يخرج الحرير من رأس الدودة . . . مع فارق واحد هو أن الحرير يخرج من رأس الدودة « سادة » وأنا أريده « مطبوعاً » ملوناً مشجراً . . . وأنا لا أستبعد أن يتحقق ذلك قريباً .

« ولذلك أتقدم بطلب أريد أن تحققه لى فى «ليلة القدر» التى فتحتها «على الآخر» لكل قرائك . . . وهو حجز نسخة واحدة من هذا الجهاز الذى يوضع فوق الرأس فيخرج الكلام مكتوباً كما يخرج من أحشاء أجهزة «التكر» وأنا أعلم أن ليلة القدر مغلقة فى وجوه أصدقائك

ولكن عندما تصل هذه الأجهزة سأتحول إلى قارئ وأنفـرغ للتفكير المطبوع .»

... أما الآن وإلى أن يصل هذا الجهاز فسأظل أهرش في عيني وفي أذني وأمر يـدي على وجهي تماماً كما تمر على وجه الراديو تضبط الموجات . . فلا أسمع إلا الصغير وإلا الوحش وسأظل أعصر الليمونة بالخافة فتسقط منها مثل هذه البذور التي قرأتها الآن !

... كن عادلاً ، إن استطعت !

مع آخرين استمعت إلى هذه القصة ، وحولى وحولم كل شيء ملون . الأضواء والفساتين والعيون والأكواب والعواطف وحتى الدموع . وقال بعضنا : مظلومة ! وقال بعضنا : بل زوجها هو المظلوم ! لماذا دعيت مع آخرين ؟ لم أعرف ، ولم أفهم .

ولكن بدأت السيدة قصتها مباشرة . بدأت فاعتدلت في مقعد عريض وثير غطت جانباً منه والجانب الآخر احتله فستانها الحريري وحقيبتها وعلبة سجائر ركعت أمام ولاعة ذهبية .

وتقاربت الأكواب وتلامست ورنت الحروف الأولى من : في صحتك .

وقبل أن تتزوج هذا الرجل . لم تكن تتصور كيف تبدأ العلاقة بين رجل وامرأة .. إنها تريد شيئاً واحداً ، هو أن ينقذها رجل شهم . رجل فارس . ستحبه . ستعبده ستكون خادماً له . جورباً في رجله منديلاً في جيبه . وسادة تحت رأسه . وامتدت يد إليها . لم تنظر إلى اليد . لم تعرف طبيعتها . لاقوتها ولا ضعفها . إن فرحة النجاة قد أذهلتها . فتعلقت باليد . وخرجت وعانقت صاحبها . وانحنت على يده تقبلها . وتضع خاتمين واحداً في يده وواحداً في يدها . هي التي . . فعلت وليس هو .

إنها غنية والرجولة لا تقدر بثمن .

ولم يطلب منها أن تعطيه كل ما تملك من بيوت وأرض . . ولو طلب لفعلت . .

ولكنه لم يطلب . لو طلب إليها بعد شهر واحد من الزواج أن تأذن له بالزواج من امرأة أخرى لوافقت . ولم يطلب منها إجازة ليستريح في مكان بعيد . لا بعد شهر ولا بعد سنة . . إنها شابة في الثانية والعشرين وهو شاب في السابعة والعشرين ، إنها بلا تجارب وهو أيضاً بلا تجارب . لقد تعلمت القراءة وكتابة القصة والتردد على دور السينما ، والاستماع ساعات إلى الموسيقى والبكاء ساعات عند النافذة وفي التليفون . تعلمت هذا كله من أجله وبسببه .

وسؤالها الذي تكرره فتقف له الأكواب في أيدينا : ماذا تستطيع أن تفعله فتاة شابة حساسة مثقفة مع رجل تحبه . لا يقرأ ولا يكتب ولا يجد متعة في أى شيء ولا يجلس في البيت ولا يسمح لى بالخروج أو بزيارة أحد ولا يعطيني حق الحياة الإنسانية ! إننى مع الناس ولست من الناس . مع الأحياء ولست من الأحياء ؟

وتبكي ، وتتلون دموعها من وجنتيها وشفتيها ، وفستانها . . إن جسمها وبيتها يروى قصة أخرى ، لا تعرف الدموع ولا الصراخ . . وإنما تعرف الموسيقى والأحلام وتعود تروى قصتها فوق . فوق كتفيها فتسحب هي العيون من جسمها إلى رأسها وتسمع منها : ما فائدة البكاء ؟ أنا أعرف أنه لا فائدة . . تماماً كالفيلسوف اليوناني الذي سأله : لماذا تبكي على

ولذلك . مع أن البكاء لا يفيد ؟ فأجاب : لهذا بكيت ! وأنا لهذا أبكى
ولأن الدموع لا تفيد فأنا أبكى على دموعي الضائعة .

وزوجها لا عيب فيه . . شاب وسيم فيه رجولة وغنى أيضاً ويحبها ،
ولكن حبه على طريقته هو : إنه يحبها ولهذا تزوجها ، يحبها ولهذا لا يسمح
لها بالخروج من البيت . ولا زيارة أحد ولا أن يزورها أحد . إنه يحبها
ويخاف عليها . ولذلك حبسها . . وهو يحبها ولذلك لا يجب أن تناقشه أو
تحاسبه . أو تجلس معه على مائدة أو تتقدمه إذا سارت في الطريق ،
ولا بد أن تنجب . . أولاداً . والذي يراها لا يصدق أنها تزوجت أو
أنجبت أولاداً . بل يقول : يجب أن تتزوج حالاً وأن يخطفها أى إنسان
ويهرب بها إلى مكان بعيد . . وهذه هى أصابعها خلت من الحوام .
ومن أى أثر لدبلة خطوبة أو زواج .

وحاولت هى أن تقنع زوجها بأن يعاملها معاملة أخرى . فالحب ليس
حالة نفسية يحتفظ بها الرجل فى دمه . كما يحتفظ بمصحف فى جيبه . .
ولكن الحب كلام وأفعال وخروج وسهر وضحك وحنان وحناق وتهديد
بالانفصال وتهديد بالطلاق وقسوة ورقة . ويد ترتفع لتضرب فإذا هى
تلين لتعانق . .

وكان رد الزوج أن هذا كلام قصص وأفلام . .

ولكن القصص لها أصل . . والأفلام واقعية .

وكان الجواب : أنا كده .

طلبت إليه أن يعرف أية فتاة أخرى . . وأن يحبها . . وحينئذ يعرف

ماذا تقوله المرأة إذا أحبت . . ويعرف ماذا يحس به عندما يحب . .
كيف يشعر بالزمان والمكان .

وكان الجواب أنت لا تريدني ، ولكني أريدك ، وسأبقى هنا ،
ولن تخرجني من هذا البيت إلا ميتة .

وتقول إنني أحبه ، وإنما أريد أن أحرك عواطفك عواطفه ، والغيرة
كاللص إذا دخل البيت أحس صاحب البيت بالخطر ، وبأن أمواله
مهددة ، وأن حياته مهددة وزوجته وأولاده كل هؤلاء سيضيعون منه . .
وأنا أريد أن أجعلك تهتز ، أن أجعلك تخاف ، أن أهزك لتتحرك عقارب
الغيرة فيك . .

وكان يضحك . . وكانت هي التي تتحرك وتهتز وتغار عندما
تتصور أنه سيحب امرأة أخرى وأنه سيفكر في الزواج منها . . ثم تبكي
وتنزل دموعها . وتشهق أيدينا وتتدافع إلى التقاط دموعها . . وكلما حاولنا
أن نعلق على الدموع ونتجه إلى القصة الأخرى التي يرويها ثوبها وعطرها
ودخانها صددتنا دموعها وأعادتنا إلى مكاننا من القصة فوق حيث تخرج
من شفتيها .

وبدأت تسأل زوجها : ماذا تفعل لو وجدتني يوماً وقد تعلق
بذراع رجل .

وقال زوجها : ماذا تقولين ؟ أليس هذا عيباً . . ؟

فتقول له : افرض هذا .

فيقول : مستحيل !

وتعود تقول : ووجدته يقبلنى .

ولا يصدق الزوج أن هذا هو كلام امرأته ، وينهض واقفاً أنت مجنونة !
ونمضى قائلة : ووجدته يعانقنى عناقاً طويلاً . . . وفى يده
مسدس يهدد كل من يقترب منى ويلقى بدبلة الزواج فى الأرض . .
تقول هذا وهى تتراخى وتترامى فى مقعدها وتحس بالسعادة وهى
تتطلع إلى زوجها وقد غضب . إنها لم تره أبداً بغضب ، وقد احمر
وجهه ، ولم تر هذا اللون أبداً . . . وقد شتمها ، وهى لم تسمع إلا أدبه
وإلا حياءه الشديد إنها تريد هكذا دائماً . . هكذا دائماً .

وكان لها ابن عم وخرجت معه . وتعمدت أن تسير به أمام المقهى الذى
يجلس عليه الزوج وكانت ترتعد وهى تفعل ذلك . . كل شىء فيها
يرتعد ، ولم يكن زوجها هناك . وانتظرت أن يناقشها أن يحاسبها . . ولكن
أحداً من أصدقائه لم يخبره . . وراها زوجها مرة وسكت . .

ومع رجل آخر وثالث . . كان لعباً أول الأمر . وكان نزهة بعد ذلك
وكان غراماً وهياماً . . وطلبت إلى زوجها أن يطلقها . . إنها تحبه ولكن
الرجل لا يشعر بها ولا يدري ماذا يجب أن يفعله إنسان نحو المرأة التى
يحبها أو التى تحبه . . إنه رجل بلا خيال ولا شاعرية .

وحدث بعد ذلك شىء نستطيع أن نتنبأ به من ارتعاش جسمها كله
ومن دموعها ومن السيجارة التى سقطت على البساط . فتزاحمت عليها
الأيدي تنقذها . وتنقذ البساط منها . . وانتشلنا السيجارة وكانت ما تزال
مشتعلة ولكن عندما اصطدمت بالمنضدة تساقطت نيرانها وانطفأت . . .

وظلت السيدة مشتتة بالذكريات والحزن والأسى أما الذى حدث فهو أن زوجها ذهب إلى عزبته . وهناك انتحر وانطفأ . .

وكان ذلك منذ ستة شهور . . وضمير الزوجة الذى استقر فى هذا الجسم الحميل الذى لا يستقر فى هذا الثوب ، أوقى هذا البيت . ضميرها يعذبها . إنها تحس أنها قتلت الزوج مع أنها لم تقصد إلا إشاعة الحياة فيه من أجلها ومن أجله ومن أجل أولادهما . والمطلوب منا أن نقول إنها بريئة من دم هذا الرجل الذى مات وأوصى لها بكل ما يملك . فزاد فى عذابها وألمها

وحكمت المحكمة ببراءة المتهم وذلك بعد أن جاست للمداولة مع المتهم وأكلت فى بيتها عيشاً وملحاً وملأت منها العين والفم والأنف والقلب .

فأراى الذين لم يروها ولم يجلسوا إليها ولم تمزقهم دموعها .

إن هذا البيت الحميل يتحدى العدالة . ١١

عم سيد !

في بيتنا . وتحت سلمنا . عجوز يقاوم جاذبية الأرض بعضا قديمة . اسمه عم سيد لقد ارتدى كل ملاپسه . ولف حولها حزاماً من الجللد . وعلى رأسه وضع طرطوراً ووقف مرتجفاً يقاوم البرد . إنه يشبه « بابا نويل » ولكن بعد أن وزع هداياه ونزع ملاپسه وأعطاهما للأطفال في كل مكان ثم نسج من الطين ملاپسه وذراعيه ورجليه .. ويشبهه بعد أن هجم عليه ألوف اللصوص فسرقوا بصره وسمعه وحياته .. وقطعوا صلته بكل الناس .. ولكن عم سيد لا يزال يقاوم اللصوص المجهولين . يقاومهم بصفائح كالمتاريس مملوءة بالتراب . وفي التراب قطع معدنية تلمع . إنها كنوزه . ففي كل ليلة يخرجها ويمسحها ويدفنها من جديد . يدفن نقوداً جديدة رقانة .. كأنه يكرر عملية الواد القديمة أيام كان الناس يدفنون الفتيات أحياء .. أو لعل عم سيد يهون على نفسه مشكلة الموت والدفن . فهو يمثل عملية الدفن تحت التراب كل ليلة . ثم يقف بعصاه يدفع عن نفسه الكلاب ، فهو يتوهمها أرواحاً شريرة . وكثيراً ما اختلط عليه أمر الكلاب والقطط ونحن . وراح يضربنا ونحن نعذره لأنه لا يحسن القراءة بيده . إنه لم يتعلمها إلا أخيراً .. !

فهو لا يقرأنا بأصابعه وإنما بعصاه . فهو يمر بها على الحائط وعلى الأرض وعلينا ..

وفي الليل .. في كل ليلة يقفل باب غرفته .. ويتلمس ثوبه الحديد .
الذى كان جديداً والذي لا يلبسه إلا في الأعياد . وحذاءه الأحمر سابقاً .
وطاقيته الشبيكة . وزجاجة فيها عطر لم يشمه أحد . ومراة صغيرة تراه
ولا يراها . وفي حضور هذه الكنوز ينام بعد أن استراح إلى أن اللصوص
لم يحملوها معهم .. إنه يفعل تماماً ما كان يفعله الفراعنة من ألوف السنين ..
لقد كانوا يدفنون كنوزهم معهم في انتظار الرحلة إلى الشاطئ الثاني
وكذلك عم سيد .. إنه ينتظر رجلاً .. إنه ينتظر « بابا نويل » آخر ..
يأخذ ولا يعطى ، يأخذ الطفل وأباه .. الشقى السعيد .. إنه ينتظر هذا
المحصل .. محصل النور والماء والهواء .. الذى يحصلنا ويقبضنا وهو يقرأ
في كشف لا نراه ولا نعرفه .. إنه ينقلنا من هنا إلى هناك ..
لقد أخذ من عم سيد الكثير .. ولم يترك منه إلا الحروف الأولى ..
تركه عملة ممسوحة سيلقى بها في « حصالة » لا ترد أحداً وتتسع لكل
أحد .. فوق السلم أو تحت السلم !

حفنة تراب

في بورسعيد قابلت كثيراً من الناس جاءوا من الشمال والجنوب . .
كلهم ثيروا ماذا فعل العدوان بهذه المدينة الآمنة . إن كل شيء هادئ
فيها . الناس والحياة ، والأنقاض ترتفع من الشوارع ، ودخان البارود
قد طغت عليه رائحة البحر ، والناس ينزلون من القطار يبحثون عن تمثال
دى لسبس . . لقد تحطم التمثال وسقط فوق زورق صغير وانكفاً على
وجهه . . إنه غارق على سطح الماء . وتمثال الجندي المجهول قد انفصل
حصانه . . وألقى أحدهما في الشارع وامتطاه الناس والتقطت لهم صور ،
والآخر في منتزه صغير . .

والشوارع امتلأت بالبيريئات الزرقاء يتحرك تحتها جنود وضباط .
لأنهم الكنديون أبناء عم الإنجليز والأمريكين ليسوا صغار السن كالدمركيين
والسويديين . بل معظمهم على أعتاب الأربعين والخمسين . وهم لا
يتحدثون إلى أحد من الناس . ولكنهم يداعبون الباعة المتجولين .
وكل شيء سيتغير في هذه المدينة . فالشوارع تنظفها السيارات
والنفوس تعمل في إزالة الأنقاض . ولن يكون هناك خراب ولا دمار .
سيختفي التراب الذي أغمض العيون وسد النفوس . تماماً كما اختفى من
المدن الألمانية . لقد رأيت ميونخ ودسلدورف ورأيت هانوفر وهامبورج ، كلها

ضربت بمئات الآلاف من القنابل . ولكن اذهب إليها الآن وأرني أثراً
واحداً لقنبلة أو طوربيد . . لا شيء ، قامت البيوت . أو على الأصح قام
الناس فقامت البيوت !

وستمتلئ محلات بورسعيد بالزبائن ، والشوارع بالسائحين من
كل بلد في أوروبا وآسيا . . ولن تقف طويلاً زوارق الصيادين .
ولن يطول تناوب عمال الأرضفة ، سيكون هناك بحر - كما يقول أبناء
بورسعيد . وهم يعنون بذلك الحركة والتجارة ، فإذا كانت هناك حركة
وتجارة فهذا هو البحر . وإذا لم تكن هناك حركة فالبحر أرض يابسة .
إذن فليس هناك بحر .

وكان الليل بارداً في بورسعيد . والبرودة تعلن حالة الطوارئ في كل
الشوارع حتى البوليس الدولي قد توارى في البارات . إنهم وحدهم يشربون
ويضحكون ولا توجد بينهم ولا معهم امرأة واحدة . والتعليمات صريحة
بأن يلتزموا الأدب والوقار حتى إذا شربوا . . إلا إذا ذهبوا إلى الصحراء
فهم أحرار يفعلوا ما يريدون . وقد سألت ضابطاً دولياً رأيته يتطلع
إلى السماء : كيف الحال ؟ فأجاب : لا شيء هناك . وإنما ننتظر سقوط
الجليد !

وتركني ومضى يضحك واحتفظ بالمعنى في بطنه أو ربما كان كلاماً
بلا معنى أو هي إجابة تقليدية أو أنه كلام دولي !

ودخلت أحد الكباريات . . وقد امتلأ بالبوليس وعيونهم تتجه إلى
من يدخل من المدنيين ولكنهم حريصون على أن يضيّقوا اتصالهم بالناس

إلى الحد الأدنى . . . وفي هذا المكان منذ ستين ظهرت فتاة يونانية كانت جميلة الصوت والشكل . وكانت طيبة القلب . وبهذه الطيبة خربت بيت أعز أصدقائي . . . إننى أستطيع أن أروى قصته هنا وأنا آمن . فهو غاضب منى ، وقد أقسم ألا يقرأ شيئاً مما أكتب وخسرت قارئاً مستنيراً صادق الإدراك والنقد . . . كانت تربطه بهذه المطربة اليونانية واسمها « ميراندا » صلة الحب العنيف . وكان يسافريوماً بعد يوم من القاهرة إلى بورسعيد ليجلس إليها حتى الصباح ويعود إلى مصر . . . ولم أكن أعرف هذه العلاقة . . .

وفي يوم تلقيت دعوة من زوجته لحضور عيد ميلادها . وذهبت ولم أفطن إلى أن مجئى إلى بيت هذا الصديق كان مفاجأة كبرى له . وبعد وصولى بدقائق استدرجتنى الزوجة إلى البلكونة وفتحت مظروفاً كبيراً وسألتنى إن كنت أعرف واحدة من هؤلاء . . . والمظروف مليء بصور الفتيات . ولم أكن أعرف . . . إلا « ميراندا » هذه ومددت يدي إليها . وسقطت الصور من يدي الزوجة . بل وسقطت الزوجة من حياة هذا الرجل وانفصلت عنه حتى هذا اليوم .

وكان الزوج قد أكد لها أنه لا يعرف صاحبة هذه الصورة ولا يدري من الذى دسها فى جيبه ، وقاطع الزوج أصدقاءه القدماء وصديقاته القديمات . وهو اليوم متصوف لا يقرأ إلا القرآن وإلا الأحاديث النبوية . . . ويعيش فى أرضه التى يملكها بعيداً عن كل إنسان وكل زوجة وكل ميراندا .

إن هذا الصديق كأنه مات . . يكفي أنه قرر ألا يكون له مستقبل . .
والإنسان الحي هو الذي له مستقبل، والميت هو الذي لا مستقبل له .
ونحن وبور سعيد أحياء . سيكون لنا شأن . وسنعيش وننهض لأن
الحياة تستحق أن نعيشها وأن نمدها بنا وبالناس بعدنا . وما دام هناك بحر
ستكون حياة . ليس هذا كل ما أحسسته في بورسعيد وإنما هذه حفنة من
تراب الأرض التي تلقت عنا الفزع والنار والدمار . وبقيت وستبقى وتعيش
بنا وبعدها . .

وبكى الطفل !

كأن في داخلي طفلاً صغيراً . . لم يكبر ولا يريد أن يكبر . إنه يمد يده إلى الناس لكي يعطوه بعض « التبنون » أو يقرصوه في أذنه قائلين : شاطر . . وإلا لماذا أتحدث عن ذهابي لنادي التوفيقية وعن أنني ألعب التنس . . وأن المضرب الذي ألعب به من ماركة دنلوب وأن الكور أيضاً من هذه الماركة . وإذا أستدرج أصدقائي لكي يتفرجوا على . مع أنني أكره أن يرقبني أحد وأنا ألعب . وأنا أتساقط في خشونة على الأرض وأمامي عمن خفيف رشيق الحركة . . على كل حال لست أنا الذي أفعل ذلك . وإنما هو الطفل المحروم المسكين الذي في داخلي . . الذي لم يسمع كلمة حلوة طول طفولته وتلمذته . أيام كان ترتيبه الأول في كل مراحل التعليم حتى الليسانس . . وأنا أرى ذلك وأسمع وأشفق عليه وأتحول إلى أم . وإذا بي أحمل الطفل على صدري وأهدده وأقول له : سد ياروحى سد . . بابا زمانه جاي . .

وكنت أسحب السنة أصدقائي ليقولوا لي : والله أنت تلعب جيداً . . كيف تفوقت هكذا . .

وأنا أعلم أن هذا غير صحيح وأصدق كلامهم . وأقول لنفسى : لم يعد الطفل في الداخل لقد أصبح في الخارج أيضاً . . واشتريت كثيراً من الكتب عن أبطال التنس . وقرأت عن اللاعبين

العالمى « هود » الذى لا ينام إلا إذا كانت الكرة والمضرب فى حضنه . . . وقرأت عن لاعبة ديمركية كانت تحلم بأنها تلعب وهى نائمة فكانت تصحو من النوم وتذهب إلى صديقة لها وتلعبان معاً . . . وقد تكرر منها ذلك حتى منعها البوليس من إقلاق راحة النائمى . . .

وجمعت عدداً من المقالات عن الأدباء والشعراء والفلاسفة الذين كانوا يحبون الرياضة ويفضلونها على القراءة والكتابة . . . وقررت أن أولف كتاباً عن « أدب الملاعب » . . . وليس مهماً أن يصدر لى أو لغيرى وإنما المهم أن يصدر والسلام . . . واكتشفت أننى غير مقتنع بهذا اللعب وإضاعة الوقت فيه . وأن كل الكتب التى اشتريتها والمقالات التى جمعتها ليست إلا محاولة لتبرير موقف لا يقنعى . . . ومع ذلك لم أتوقف لا عن شراء الكتب ولا عن جمع المقالات ولا عن اللعب

إلى أن كان أمس . . .

ذهبت لأشهد مباريات فى كرة التنس ، إنه شىء غريب عن الذى أعرفه . . . فلا اللاعبون يتسكون المضارب كما أفعل . ولا الكرة تتحرك معهم كما تتحرك معى . . . لأنها فى أيديهم طائفة خفيفة خاطفة . . . وفى يدي كأنها طوب أو حجر . . . ولأنها ثقيلة . . . وحركاتهم أرق وأكثر نعومة . . . أما حركاتى فهى دبيب على الأرض كأننى أحاول رصفها من جديد أو أحاول مسح العلامات البيضاء منها .

ثم رأيت اثنين من اللاعبين . . . وعرفت فيما بعد أنهما من أشهر لاعبي مصر . وهذا واضح جداً . وعرفت الفرق الذى يثنى بينهما . . .

فكل منهما يلعب وكأنه يطارد فراشة بيضاء .. فيرفع يده إلى أعلى .. إنه « يهوشها » فقط ولكنه لا يضربها .. لأنه يخاف أن تموت .. أو كأن الواحد منهما لا يضرب الكرة وإنما هي التي ترعى على مضربه ..

أما أنا فأشبهه عسكري البوليس والكرة تشبه البائع المتجول .. البائع « السريع » وأنا أضربه على قفاه وأقول : يا لله قدامى على القسم ..

وأحسست بشيء كثير جداً من البأس والقرف .. وشعرت كأنني بائع متجول وأن يداً غليظة تهبط على قفائي وتقول : قدامى على البيت !

وقمت .. ولم أذهب إلى النادي بعد ذلك .

... وبكى الطفل !

إنه عقلي الصغير !

من الناحية الأخرى جاءتني ابتسامة عابرة . . ولم أرد عليها . . فانا لا أعرف إن كانت لي أو لغيري : ولم ألتفت ورائي ، لأرى من هو صاحبها . . . ووقعت الابتسامة على وجهي وكأنتها حمامة بيضاء فوق مدخنة أحد المخابز . . وعادت الحمامة إلى حيث كانت من الجانب الآخر من « نادي الجزيرة » ولكنني نظرت إلى هذه الناحية . . وفي مرارة عشرين فنجاناً من البن ، وجفاف سهر الليالي الطويلة بلا نوم ، وقرف حبوب كثيرة أتعاطاها ضد السمنة ، حاولت أن أبتسم ولكن جاء ردي متأخراً . . .

وحاولت أن أداري نخجلي . . . أو برودي . . فرحت أنطلع في الوجوه . . . وكانت عيناى تتعثر بين المقاعد والمناضد . . . وتتسلل بين الناس ، وتترحلق على الفساتين المشدودة بالصحة أو بالترزي . . . وفي جانب من النادي أحسست فجأة أنني أقرأ في كتاب قديم من القرن الثامن عشر . . . فالوجه الذي أراه هناك . . . معروف في تاريخ الأدب الفرنسى . . . من أيام الحب والجمال والفروسية . . . وأنا أراهن أنها تنتظر فارسها الذى سيجىء ومعه سيفه . . . وتحت حصانه الأبيض ، ووراءه عائلته وقصوره . . . وسيخطفها إلى مكان بعيد . . . وفعلما جاء الفارس

بلا حصان أبيض ، فقد كان هو الحصان الأبيض... إنه صحة بلا رقة ،
وقوام بلا خيال .. ونهضت هي كعصفورة ووقفت على ذراعه ... وأطلقت
حمامة بيضاء أخرى ناحيتي ... فأطلقت أنا سرباً من الحمام الأبيض
ومعه بعض الصقور والنسور ، ووضعت في رجل كل حمامة رسالة
صغيرة ...

وأغلقت الكتاب الذي كنت ألقبه في خيالي وأصبح كل شيء أمامي
أبيض اللون ... كصفحات سقطت منها الصور ... أو ألواح زجاجية
انعكست عليها الشمس ...

وكانت هذه الابتسامة فيما مضى تذييني ، تجعلني أنزل من المقعد
إلى الأرض وأركع وأشكر الله الذي وهبنا الشيء الجميل ووهبنا الإحساس
به ... فنحن لا نرى الله ، ولكن نرى ما صنعه يده ... ونحن في
سعادتنا نقبل يديه ...

وفي خيالي ... ركعت وسجدت وشكرت الله ... فما تزال الابتسامة
تهزني ... وتنقلني من عصر إلى عصر ... إن قلبي ما يزال صغيراً ...
وعندما رأيت السمراء تصافح رجلاً يجلس ورأى ... وتجلس إليه
وتعجب عليه أنه كان مشغولاً عن ابتسامتها وإشارتها ، حزنت وحزنت
وحزنت على أن عقلي ما يزال صغيراً !

بخلع الضرس !

ليس هذا الموضوع شخصياً . ولكنه موضوع عام . وأنا مضطر
أن أذكر هنا بعض الأسماء . . فكل اسم كأنه قسم ، كأنه « حلفان »
بالله العظيم أن ما أقوله صحيح !

أنا الآن في عيادة الدكتور ع . . . المصباح المضىء يدخل في
أذني وفي أنفي وفي حلمتي . والدكتور يقول لي : كل شيء سليم .
وأحسست بكراهية للغة العربية وللمصباح !
هذا شعورى . . .

وانتقلت إلى مستشفى الدكتور . . . أنزع ملابسى وأتمدد على منضدة
طويلة وبجوارها مناضد صغيرة . . ويقف إلى يمينى الدكتور و . . .
طبيب الأسنان . أمامه أجهزة وأدوات شكلها عجيب وخيف . مساهير
وإبر وأمشاط وكلبشات ملتوية كأنها خرجت من النار تواء . وأنا في
دهشة وأسأل نفسى والبنج الكامل الشامل يتمشى من ذراعى إلى كل
جسمى : كل هذه الأدوات من أجل ثلاثة ضروس . . لا بد أنه
سيخلع . .

ولم أكمل هذه العبارة لأننى لم أشعر بشيء بعد ذلك . .
وبعد دقائق لا أعرف كم عددها بدأت أفيق ، وهنا يبدأ الموضوع
الذى أريد أن أتكلم فيه - بدأ الضباب الكثيف يتزحزح قليلا . المصباح

الذى فى السقف يشبه عيناً حمراء . . كل شىء حول كأنه ماء أو أمواج
وكأننى سمكه أتلوى . . أو كأننى فى قاع البحر . . لا أشعر برأسى
إطلاقاً . ولا أعرف كيف أرى الأشياء ، ولا أدرى بأى شىء أراها وأرانى
. . وأحس كأن النصف العلوى لرأسى فقط هو الحى ، أما النصف
الآخر فلا وجود له ميت . . . أو أن عنقى يبدأ من تحت عيني
مباشرة وأن تياراً من الهواء يلتف حول عنقى . . .

أرجوك أن تنتظر بضعة سطور حتى أوضح لك ما أريد أن أقول :
وبعد ساعتين . . . أصف لك شعورى . . بدأت أشعر بقمى وبلسانى
وأسنانى . . . وأشعر برأسى كله . ولو كنت رساماً وأمسكت قلماً وحاولت
أن أصور نفسى . . . لكأنت الصورة هكذا : بقعة سوداء على هيئة
نمس بطيخ . هذا النمس هو رأسى . وسوداء لأننى لا أرى رأسى ، ولا
أحد يرى رأسه وبعد ذلك أرسم أنابيب ملتفة فيها ماء يغلى . . . هذا بالضبط
شعورى . . . ثم هنا شىء يلتف حول حلقى لا أعرف كيف شكله ، لا
أراه ولكن أحسه . . . ألا أعلم أنها عروق تنبض . . ولكن أحس بها كأنها
الأفاعى التى تهرب من النار فى حلقى . . ولو رأيت هذه الصور ورأيت
الناس يسخرون منها ، فسأسخر أنا منهم . فقد كان هذا شعورى بالضبط .
مواسير مياه أو مواسير هواء ساخن ينفلد من رأسى إلى حلقى ومسامير
ملتفة تدقها شواكيش لا أراها . .

وهذه اللوحات غريبة لأننا تعودنا على اللوحات التى يرسمها الإنسان
وهو فى كامل وعيه ، التى لا يرسمها وهو دائخ أو سكران أو يحلم أو وهو

ما يزال نعلان . . . أو هو يعانى آلاماً حقيقية ... وشئ آخر وهو أننا
 تعودنا أن نرسم « رجلاً » يبكى وأن نرسم « رجلاً » يخلع أسنانه . . . أو
 « امرأة » مغمى عليها ... ولكننا لم نتعود أن نرسم « البكاء » نفسه ... أن نرسم
 « الألم » ... أن نرسم « الإغماء » ... هذه هي الصعوبة ... فاللوحة التى أرسمها
 لنفسى وأنا أتألم ، ليست هى وجهى ولا ملامحى ولكنها شعورى ... شعورى
 بالألم والعذاب والصداع واحتباس الدمع فى عيني . ونحجلى من الطبيب
 والمرضات وحرصى على أن أخفى كل متاعبى عن أمى ... فأنا أرسم
 المعنى ، ولا أرسم الشخص ...

ولهذا كانت لوحات الفنانين السيراليين غير مفهومة أو مستحيلة
 الفهم ... لأنها لوحات ترسم المعانى المجردة من اللحم والدم المجردة من
 الأشخاص ...

ولكننى أستطيع أن أقول إننى فهمت بعض هذه اللوحات ولكن بعد
 إليه ؟ . بعد خلع الضرس . . بل الثلاثة ضروس !

.. عارف أنا مين ؟

... سيدة وزوجها وأولادها . أمامهم منضدة عليها أكواب فقط .
تحت المنضدة سلة لها كرش كأنها قنبلة ... كلما اقترب منها الأطفال
ضربتهم الأم وغمز لها الأب قائلاً : وبعدين ؟ السيدة فيها شبه كبير
من ماري منيب ، المكان ليس مسرح الريحاني . إنه جزيرة الشاي .
الوقت هو ساعة الأذان . الأسود تزار . البط والإوز يدور حولنا كأفكار
حائرة في رأس لم يتخذ قراراً . كل شيء هادئ . وأخيراً ارتفع صوت
اتجهت إليه العيون والآذان ...

السيدة : أنت مش عارف أنا مين ؟

البحرسون : مين يعني إيه ؟ وأنا مالي ... إيه اللي مش عارف أنا
مين ... لا ما اعرفش انت مين يا ست هانم ...

الهانم : اسكت أحسن لك . انت مش عارف أنا مين ...

البحرسون : لا يهمني أبداً ... الأصول لازم تمشي يا ست هانم ...
ممنوع ... الأكل هنا ممنوع ... إذا أردت أن تأكلي فأنا خدامك ولكن
أى أكل من البيت ممنوع ...

الهانم : اسكت أحسن أقوم أكسر دماغك !

البحرسون : عيب ... أنا قلت ممنوع يعني ممنوع .

أنا (بيني وبين نفسي) : أنت مين يعني إيه ... طبعاً كلنا نعرف

أنت مين ! الشوال الذى تلبسينه من تفصيل منجد بلدى ... بشرة حضرك
تحتاج إلى مبيض للنحاس ... الأساور التى فى يديك خردة عليها صدأ
أفكارك . وأنت لو كنت شيئاً له قيمة ، بلحلت فى مكان آخر ... فى
هيلتون مثلاً . أو كان فى استطاعتك أن تبني قصرًا وتجعلى فى القصر
بحيرة وفيها جزيرة وفى هذه الجزيرة يقف عشرون جرسوناً من خريجي
الجامعة .. وفى استطاعتك أن تصبى على رؤوسهم الشمع وأن توقدى هذا
الشمع لكى يضىء الطريق للذباب لكى يدخل عيون أبنائك ! طبعاً
أنا أعرفك ... أنت فشارة ... أنت تافهة ... مين يعنى إيه ؟ من هو
زوجك ؟ الأصول يعنى الأصول !

وخشيت أن تسمع هذه السيدة أفكارى فوضعت يدي على فمى ..
وتنحنت كأنى أبلغ كلامى !

الجرسون : من فضلك ممنوع . وإلا .

الهائم : وإلا إيه يا روحى ... تهددنى . تهددنى بإيه ... امش من
هنا ... أنت فاكر أن أولادى عاشوا على الأرصفة ... أولادى عاشوا
على الغالى ... شوف نفسك أنت ؟ (وتنظر إليه من فوق لتحت) .

الجرسون : على الغالى على الرخيص ... ممنوع ... الآن لا أحد يعيش
على الأرصفة ... ثم إننى رجل محترم ... إننى أعمل فى هذه الخدمة من
٣٠ عاماً ولم أسمع شيئاً كهذا ...

الهائم : مش كل الطير يتاكل لحمه .

الجرسون : مالى أنا ومال الطير اللى يتاكل لحمه واللى ما يتكلش ...

هذا ممنوع يا هانم ...

أنا (بينى وبين نفسى مع الأسف) : أتمنى أن أكون فى ملابس هذا الجرسون لألقنه كيف يرد على هذه السيدة الباردة ... وكيف يتمسك بالأصول ... كيف يطردها بقوتنا — نحن الزبائن ... نحن الأغلبية الساحقة التى جاءت تلتقط هواء بكرأ لم تتنفسه حمير وقرود وأسود هذه الحديقة ... وكيف يلنى بها فى البحيرة ... لقد حدث منذ أيام فى أحد مطاعم روما ... لقد كانت هناك سيدة سكرانة جداً ... فتعاون الجرسونات وألقوا بها فى الماء ... وهذه السيدة سكرانة بالغرور ... بالنفخة الكاذبة ... والله لقد كان الرجل هيلتون على حق عندما اختار جرسوناته من أحسن طبقات مجتمعا ... فلا يستطيع زبون أن يقول لجرسون : أنت مش عارف أنا مين ؟ لأن الزبون يعلم من هو هذا الجرسون .

(... المنظر الآن تغير ... السيدة تجلس وزوجها وأولادها فى هدوء ... كأنها على المسرح وكأنه لا يوجد جمهور يتفرج عليها فى هدوء ... أما الجرسون فهو كالممثل الذى أخطأ طريقه إلى الكواليس فشى من فوق خشبة المسرح ، واختفى فى كسوف ... انفتحت السلة ظهرت شظايا القنبلة ... إنها سندوتشات ضخمة ... وبعد لحظة ظهر الجرسون ومعه دورق ماء ... ووقفت لكى أراه وهو يتزل فوق رأس السيدة ولكن مع الأسف وجدته قد استقر أمامها ... ولم أستطع البقاء لحظة وقابلنى الجرسون وأنا أنصرف ...)

الجرسون : الله ! على فين ؟

أنا : هنا رائحة زفارة

الجرسون : الرائحة موجودة كل يوم . .

أنا : أيوه صحيح . . ولكنها زادت النهاردة . . وعاوز أشوف الحمار

اللى الصحف كتبت عليه إنه ولد أخيراً . . . ثم إنك لا تعرف أنا مين ؟

الجرسون : نعم ؟

أنا : أنا اللى احترمتك لمدة دقيقة ورأيتك بطلا لأنك تمسكت

بالأصول . . . أما الآن . . . فروح شوف الهانم ابنها بيعيط . . . يمكن

عاوزاك تشيله شوية . . مفيش فائدة !

الجرسون : نعم ؟

أنا : هذه هي أحسن كلمة . . قلها . . قلها . . طول عمرك !

الجرسون : نعم ! !

أنا : أنت مش عارف أنت مين !

صراع . . وصداع

منذ أيام أحسست أن رأسي كالبيضة في داخلها كتكوت يريد أن يرى النور .. إنه ينقرها من الداخل ... منقاره قوى... ولكن جدار البيضة قوى . . . أقوى من منقاره . . . ويبدو أن هذا التكتوت يريد أن يخرج قبل الأوان ... وككل عملية ولادة تصاحبها دموع . لا دموع المولود ولكن دموع البيضة وصراخها ...

وهذا التكتوت من المؤمنين بالحكمة التي تقول : من سار على الدرب وصل والذي يذمن الدق على الأبواب لا بد أن تتفتح له .. فهو يدق رأسي في مكان واحد ...

لم أفهم سبب هذا الصداع الشديد . رحت أقلب في الكتب .. فكتاب يقول لي إن سبب الصداع الشديد هو : العين أو المعدة أو الكلى أو الكبد أو الجيوب الأنفية . . .

وكتاب يقول : إن الصداع له أسباب نفسية مثل الانفعالات الشديدة كالخوف والقلق .

وكتاب ثالث يقول : إن الصداع النصفي وراثي . . . وإن المصاب بهذا الصداع يجب أن يفتش بين آبائه وأجداده عن أصل هذا الصداع .. وهذا الصداع النصفي لا يصيب الإنسان بعد الستين أبداً .

ولكن إذا أصابه قبل الستين فماذا يعمل ؟

الكتب كلها التزمت الصمت . . كأننى طائفة معلقة فى الهواء بدأت تستغيث بأقرب المطارات منها . . ولكن مطاراً واحداً لا يرد .
وقلبت فى كتاب آخر وأنا أبتسم لصفحاته التى امتلأت بعبارات تقول : الصداع توأم الذكاء الشديد (هـ !) . وعبرة أخرى تقول لك :
الصداع هو الثمن الذى دفعه أصحاب الطموح (يعنى ا)

وقرات أن أعراض الصداع النصفى . أى الذى يصيب نصف الرأس تظهر بأن يسبقها أولاً إنذار ، فانت ترى بريقاً فى العين . . أقصد شراً ينطلق منها أمامك . . . هذا الشرر هو بشير بأن الصداع فى الطريق . .
هذه الشرارات تشبه تماماً النقاط الضوئية التى تظهر على شاشة التليفزيون . .
واحدة واحدة وبسرعة هائلة ليبدأ البرنامج .

وبعد الشرارات التى تنطلق من أو أمام عينيك . . يبدأ صفير . .
وهذا الصفير يدل على حيوبتك ونشاطك . . تماماً كالصفير الذى ينطلق من إثناء يغلى . . لكى تسارع برفع الغطاء عن الإناء أو إبعاده عن النار .
والمصيبة أن الذى يحاول رفع الغطاء . غطاء رأسى لست أنا ولكنه شئ فى داخل الرأس . . .

وهذا الصداع النصفى يدل على أن هناك اختلالاً فى توازن الجسم . .
القلويات أعلى من الحمضيات أو العكس . . وهذا الصداع يشبه « الطقطقة » التى تسمعها وأنت تمشى على أرض خشبية . . أو يشبه صوت الألواح الخشبية فى زورق يتأرجح يميناً وشمالاً . . والزورق يحاول

أن يحتفظ بتوازنه . . وجسمك هو الآخر يحاول أن يتوازن . . والصداع هو صدئ التوازن !

وقرأت في كتاب « الوصفات البلدية » للدكتور جارفيز أن العلاج الوحيد للصداع هو أن تضع الخل في الماء وتشربه . . وبعض البدائيين كانوا يشمون بخار الماء والخل .

ولكن العلاج الناجح للصداع هو ملعقة من عسل النحل . . مرة أو مرتين في أى وقت . . فالعسل هو وحده الذى يهدئ الأعصاب ؛ فالجسم يمتصه بسرعة وينقله إلى الدم في نصف ساعة . .

وجربت العسل . . وقد أفادنى العسل فعلاً . . ولكن المشكلة الآن أن الصداع الذى تجمع في جانب من رأسى قد تفرق على أسنانى . . في كل صف منها صداع . . وقد اصطفقت أسنانى صفين . . كأنها أعضاء مجلس إدارة حول مائدة مستطيلة . . وكل واحد منها يطلب الكلمة . . كلها في وقت واحد . . وعندما لا تعطى له الكلمة يدق المائدة بيديه ! !

وحاولت إرهاب السادة أعضاء مجلس إدارة غنى وحياتى كلها بأن أصرخ وأنفخ وأوزع عليهم أقراص الأسبيرين والفيجانين وطوفان المياه . . فتتعالى الصرخات . .

ملحوظة : أحسن علاج في هذه الحالة هو أن تخلع أسنانك كلها . لمعظم سكان أمريكا لهم طقم أسنان . . والسبب هو سوء المضغ . . مضغ الأكل ومضغ الكلام . . كالمنشور أعلاه !

إنها محطة واحدة !

أحب السكن بجوار السكك الحديدية . . . حيث النار والبخار
والصغير والزعيق . . . والوقوف على الرصيف في انتظار شيء ما . . . والوقوف
أن يفوتني شيء ما . . . وشعوري الدائم بأنني على سفر . بأنني مسافر . .
بأنني أتخفز وأتربق وأتهبأ .

وكل البلاد التي سافرت إليها كنت أسكن فيها بالقرب من محطة
وكنت أتمنى لو أنني قمت من نومي فوجدت أن الفندق الذي أنزل فيه
قد سحبه أحد القطارات وانطلق به إلى نهاية العالم . . . وبلا توقف . .
واكتشفت أخيراً أنني أسكن بالقرب من أغرب محطة في الدنيا . .
إنها ليست محطة سكك حديدية . . بل إنها محطة ولكن بلا سكك . .
إنها ميناء ولكن بلا سفن ولا ماء . . إنها محطة فقط للسفر بين الأرض
والسما . . وكل إنسان مسافر بين الأرض والسما . . وكل مسافر ينتقل
من هذه المحطة إلى مكان بعيد . والرحلة كلها محطة واحدة . . وكل إنسان
له قطار خاص به . . والمسافر يودعه أهله وأصحابه بعد سفره بساعات
وأحياناً بأيام . .

والغريب في أمر هذه المحطة أن القطارات ليس لها صغير ، وإنما الذي
يصفر ويصفق ويضرب الأجراس هم الواقفون على الأرصفة . . كل

ذلك بعد أن يكون القطار أو الباخرة أو الصاروخ قد انطلق . .
 فبيتنا يقع على رأس شوارع صغير . وهذا الشارع تنهى إليه مجموعة
 من الحوارى الضيقة التى تتسع لأى صوان يجتمع فيه الناس ليترحموا على
 أحد الموتى . . ولذلك فأقارب الموتى يجتمعون كل يوم بالقرب من بيتنا
 حيث نقطة الانطلاق إلى العالم الآخر . . حيث توجد المحطة التى يسافر
 منها الناس بلا رجعة فى قطارات خاصة جداً . . قطارات شخصية لا يراها
 أحد . . وعلى رصيف هذه المحطة يكون ويصرخون .

وآخر المسافرين هو عم إسماعيل . . .

وليس عم إسماعيل شخصية هامة . ولا حتى هو شخصية ، إنما رجل
 سقط بعد الثمانين على الأرض . . ولم يكن سقوطه خبراً هاماً . فقد كان يعيش
 على الرصيف ، وتدهرج من الرصيف إلى الشارع . . لقد كان سقوطه
 هيناً . بل إنه عاش ساقطاً ومات ساقطاً . . بل إن الإنسانية كلها ساقطة
 من السماء إلى الأرض . . وكان عم إسماعيل يتربع على عرش من الأحجار
 يتصرف فى مملكة الترمس والفول . . وكان يبيعها أحد عشر شهراً فى
 كل سنة . . أما الشهر الثانى عشر فقد كان يقضيه عم إسماعيل فى
 إيقاظ الصائمين . . لقد كان يقوم بدور المسحراتى .

وأمس جاء دور عم إسماعيل لينام ويصوم إلى الأبد . . أما نحن
 فكان علينا أن نصحو من الثالثة صباحاً ونستقبل ما لانهاية له من أمواج
 الصوت واللطم . . ويأسبى ويأجمل . . ويالى ربنا على العز . .
 وعلى الغالى . . ويالى ما كانش حد يشوفك ولا يسمعك — أى أنه

رجل مستور .. رجل فى حاله .. من كوم الحجارة إلى عربة الترمس ..
وقد تعودت هذه الأصوات كل يوم .. وتعودت شيئاً آخر ..
فى الطريق إلى « دار أخبار اليوم » يوجد مستشفى الولادة .. ولا يمضى
يوم دون أن تمشى جنازة .. دون أن أجد عدداً من النساء فى ملابس
سوداء كالغربان .. والصويت واللطم وبيا أختى .. يا ست البنات
يا غالية .. وياست العيلة ..

والطريق إلى مكتبي كالطريق إلى الجنة : مخوف بالمكارة . مع
فارق واحد أن الطريق إلى الجنة فى اتجاه واحد والطريق إلى مكتبي فى
اتجاهين .. ذهاب وإياب .. وأن مكتبي نار فعلاً .. الغرفة ضيقة
خائفة .. إذا أقفلت النافذة تحولت غرفتى إلى حمام تركى .. الأفكار
فى رأسى هى البخار وعقلى هو التركى ..

وإذا فتحت النافذة تراحمت الأصوات على أذنى .. ولا تزال الأصوات
تملأ أذنى حتى تسدها ومن ذلك طرقات الحديد للحديد .. وأنا أشعر
بالصداع الدائم .. لأن الأصوات أصبحت ملموسة .. أصبحت شواكيش
تطير من الورش إلى النافذة وتدق رأسى وتعود إلى مكانها .. إنها شواكيش
موجهة .. شواكيش بعيدة المدى .. شواكيش عابرة للنوافذ ..

وعلماء التجارة والصناعة يعزوني قائلين : إن هذه الأصوات
الصارخة هى موسيقى النجاح والانتعاش الاقتصادى .. إنها أوركسترا
التطور .. إننى 'يجب أن أكون سعيداً بهذه الضوضاء .. فهى قلوب من
حديد تنبض !

وأتمنى أن أكون سعيداً لولا أن هذه الضوضاء تحطم رأسي .. تحاول
 أن تضغط رأسي في عنقي وعنقي في أحشائي ، وأحشائي في مقعدي ..
 إنها تحاول أن تدفني حياً .. إنها موسيقى جنازية .. إنها تحاول أن
 تجعل من مكنتي محطة لإطلاق روحي إلى عالم آخر لكي ألحق عم
 إسماعيل الذي كان آخر المسافرين أمس ..

وسنستريح الليلة من صرخات التوديع لعم إسماعيل ..
 وغداً أو بعد غد تستأنف المحطة نشاطها .. وربنا كريم .. ربنا قادر
 على أن يجعل انطلاق هؤلاء المسافرين نهراً .. ظهراً بدلاً من أن يستقلوا
 مع الفجر « قطار الصحافة » إلى العالم الآخر !

عروس من حديقة الأسماك

كانت أول حفلة زفاف شاهدتها في حياتي . لم أعرف ما هي التقاليد التي تتبع في مثل هذه الحالات . لم يكن لدى متسع من الوقت لكي أسأل العارفين ببواطن الأمور . . . كان الوقت ضيقاً جداً . . . تلقيت مكالمة تليفونية في الصباح . وكان الزفاف في نفس اليوم والمكالمة هكذا : ألا تعرفني ؟ وكان جوابي : لا . من ؟ وسؤال آخر : هل تذكر أيام حديقة الأسماك بالزمالك ؟ وكان جوابي : أذكر .

ولكنها أيام مضت منذ أكثر من عشر سنوات . وكنت أنا وآخرين من تلامذة الجامعة نلعب الكرة ونقرأ ونتناقش وننام تحت الأشجار طول النهار .

وجاء السؤال : هل تعرف الخادمة ذات الفستان الأسود . . ألا تذكر تلك المربية التي تتكلم الفرنسية ؟

ولم أكن في حاجة بعد ذلك إلى أن تذكرني أكثر من هذا . لقد كانت أعجوبة في ذلك الوقت . وكنا نلتف حولها ولا نكف عن الدهشة أبداً . كأننا لا نصدق ما نرى أو ما نسمع . . إنها فتاة مصرية هربت من أقاصي الصعيد . . من إسنا . . من قنا . لا أذكر على التحديد . وقد حصلت على البكالوريا الفرنسية . وأحبت شاباً في بلدها . وسمع أبوها بالقصة . وسألها إن كان هذا صحيحاً فأنكرت . ولكن الحزن بدا على وجه

أبيها . وانحنت رأسه وترك لها البيت يوماً كاملاً . . ولم يكن صعباً عليها أن تستتج أنه ذهب ليتفق مع بعض أقاربه على قتلها أو إلقائها في النيل . فهربت إلى القاهرة . وفي القاهرة اشتغلت مربية . . تتردد بالأطفال على حديقة الأسماك . وتخفى في ملابسها ووراء ظهرها عدداً من الرجال لا أزال أذكر أسماءهم : تولستوى وفيكتور هيجو وبلزاك وموليير وشكسبير . . وبين الحين والحين تحدثنا عن قصة (البؤساء) وعن قصة (الحرب والسلام) ونحن نتطلع إليها وكأنها سقطت من المريح . . وكنا نقول : خادمة تتكلم الفرنسية وتقرأ هذه الكتب التي لا نعرفها . . أما غريبة . . غريبة !

وأصبحت ماتيلدة — وهذا هو اسمها — ضرورية بالنسبة لعشرين طالباً جامعياً هم الآن مهندسون وأطباء ومدرسون وثلاثة منهم صحفيون . وذهبت إلى بيتها في الزمالة . . إنها هذه المرة في بيتها وليست بيت أسبادهما . وستكون لأولادها مربية وستلعب مع الأطفال في حديقة الأسماك . ولا غرابة في ، هذا ولن يكون للمربية معجبون إلا إذا كانت هي الأخرى هاربة من أب صعيدى . . ورأيت الأب الصعيدى عند ماتيلدة . إنه صامت جامد . على وجهه علامات عرضية وطولية . . إنه مصنوع من نفس طينة البلايص والقلل . إنه ما يزال ساخطاً . . وفي بيتها رأيت أناساً كثيرين . ورأيت زملاء حديقة الأسماك قد جاءوا بزوجاتهم وأولادهم . . ورأيت ماتيلدة .

إنها لم تتغير . ولكن أضيفت لها بعض الصفات : وجهها مشرق .

ممتلئة هادئة الطبع . . . وتتكلم العربية هذه المرة . ورأيتها وهي تدفع أمامها
منضدة الطعام . . منضدة صغيرة لها عجلات . . وتذكرني يوم اشترينا
معاً بعض الكتب من الجيش الإنجليزي . ولم نجد وسيلة لنقلها إلى بيتي
سوى عربة كارو صغيرة . . ووضعنا الكتب . ودفعنا العربة أمامي . .
واخترقنا بها كل شوارع الزمالك . . وإلى جوارى سارت ماتيلدة مع
أسيادها من الأطفال الصغار . .

أما زوجها فهو السيد الذي كانت تعمل في بيته . . لقد ماتت
زوجته وأحب ماتيلدة . وكان هذا هو حبه الأول أو حبه الأكبر كما
يقول الفرنسيون . . ويظهر أن الحب في الكبر كالنقش على الحجر . والحب
في الصغر كالنقش على الماء . . ورأيت الحب منقوشاً على وجه الزوج
بالثلاث !

وأدهشني أن أرى سكيناً كبيراً معلقاً على الحائط . . وقلت ربما
هذه بعض تقاليد الصعيد . . أو سكينه أثرية . . أو سكينه لها ذكريات .
وفهمت منها أنها لم تر أباهما إلا منذ يومين . فقد أرسلت إليه تدعوه لرؤية
ابنته ليقتلها بعد أن فضحته وجعلته يلبس السواد عليها . . ولما حضر إلى
مصر فوجئ بابنته ومعها كثيرون . ولم يتمكن من قتلها وإنما ظل يبكي
وألقي بهذا السكين على الأرض وارتفع السكين من الأرض إلى الحائط
كما ارتفع هو أيضاً من حيوان إلى إنسان . يسكن الزمالك ويشهد الزفاف
ويحلم بأن يكون له حفيد يحمل اسمه الكريم : أبو جريس !

أكلوا مرأتى !

لو عرفت أن شاباً مثقفاً جداً غنياً جداً رافق زوجته فى سيارة وصعد بها إلى شقة جماعة من الرجال لا يعرفهم . . وحياتهم بكل أدب . ثم بعث لهم بقفص من الدجاج وصفيحة من السمن وخروف وظل واقفاً بسيارته عند باب البيت يسمع زوجته وهى تصرخ وهى تضحك وهى ترقص وتنتقل من ذراعى رجل إلى رجل آخر . . وتقع على الأرض . . وتمزق ملابسها . وتنام عارية والعرق والدماء تتزف منها . . ماذا تسمى هذا الرجل ؟ إنه شاب شريف يحب زوجته المثقفة التى تؤمن « بالزار » وحفلات الزار وأطباء الزار . . .

لقيبته مصادفة جالساً فى سيارة أنيقة فى حارة لا تتسع إلا لسيارته . . ولم يحتاج إلى وقت طويل يشرح لى سر تعاسته وظهور الشعرات البيضاء فى رأسه . واصفرار أصابعه من التدخين . ونقص وزنه وإصابته بمرض السكر فى هذه السن الصغيرة . . إنه لم يتجاوز الأربعين من عمره .

لم تطاوعه نفسه أن يبقى حيث هو . . ترك سيارته وصعد الدرج ووقفنا معاً أمام باب الشقة التى وضعت لها ستائر حمراء ومصابيح حمراء . . وكانت الوجوه مصبوغة بلون الدم . . أو بالدم . . لأنها جهنم . . وهؤلاء الرجال والنساء ليسوا إلا ألسنة النار تروح وتجىء وتتلوى وتصرخ . . كل

شيء نار ودم .

وفي هذا الجحيم تتحرك نساء محروقة اللون وقد وضعن البخور على أطباق كبيرة كأنهن « سالومي » تحمل رأس يوحنا المعمدان . . أو كأنهن عشرات من ريا وأختها سكبنة . . وقد تساقطت لحوم الرجال على لحوم النساء . . وتمزقت الفساتين وما تحت الفساتين . . وأخذت الطبول العاوية تصم آذان الشياطين . . وتتساقط الشياطين الواحد وراء الآخر . . وتتحول الشياطين إلى بشر . . لها أظافر وأنياب ولها زئير ويتحول البشر إلى حيوانات تحبو على أربع ليركبها الشياطين من جديد . . وتسير فوق الدجاج والخراف المذبوحة . . إن الشياطين ملوك أما نحن البشر فعبيد هؤلاء الشياطين . . هكذا تقول كل أغاني الزار . . وليس لنا معهم إلا شيء . . واحد هو الطاعة التامة . . وإلا بقيت أمراضنا وعذابنا كما هو .

ونظرت إلى صديقي فوجدته قد أسند رأسه للباب وراح في غيبوبة تامة . . وهزته فسألني عن حال زوجته فقلت له : إنني لا أعرفها . . فدهش كيف أنني لم أره معها أكثر من مرة . . فراح يصفها لي . . ولكنني عند ما نظرت من النافذة لم أر عيوناً خضراء . . ولم أرقوماً فارعاً . . ولم أر امرأة واحدة شقراء . . فالألوان حمراء، وكل العيون حمراء، فسحب نفسه بقوة هائلة . . وجعل يفحص النساء أمامه واحدة واحدة وصرخ قائلاً : إنها ليست هنا . . نحن في منتصف الليل . . وهي ليست هنا لا بد أنها نزلت . . لا بد أنها ملقاة في الطريق . . أين هي . . ياناس زوجتي الرحمة ياناس . أكلوها . أكلوا مراني .

وبرزت سيدة سوداء في يدها طبلية كبيرة . . وقالت بهدوء تام :
حضرتة زكى أفندى ؟

فأجبت : إنه هو . .

قالت : وحياتك قل له إن الهانم معزومة بعد كده عند الست أم
صبرى فى حارة زناتى . . . فى السيدة زينب .

وأقفلت الباب وعادت إلى النار تحرق فيها النساء والرجال . . وتشوى
فيها الخراف والدجاج .

وسبقنى زكى أفندى يبحث عن زوجته فى حارة زناتى .

إنه مسكين . . ولكنه ليس الوحيد فى هذا البلد ! . .

أحياناً . . أحياناً

أحياناً أشعر كأنى أحمل فوق رأسى « حلبة مصارعة » وأن هناك اثنين من المصارعين فى حالة عراك . . ضرب . . فوق الحزام وتحت الحزام . . وحالة إغماء . . وصفير وتصفيق . . وأن هناك عدداً من الحكام يصرخون : واحد اثنين . . مائة . . ألف . . ومع ذلك لا يزال أحد المصارعين ممدداً على الأرض وينفخ .

وأحياناً أشعر كأن رأسى عبارة عن خلية نحل . . زحام وضوضاء . . وكلها تلسع وتوجع . . وأشعر كثيراً أن النحل الذى يسكن رأسى من نوع غريب . . من نوع عاق كريبه . . وأن هذا النحل يجمع رحيق الزهور ثم يحولها إلى عسل ، ويضع العسل فى مكان آخر . . ثم يأوى إلى رأسى لينام . . كأن رأسى بنسيون أو كأنه أحد بيوت الطلية . . هبصة وضوضاء . . وحنفيات مفتوحة وأبواب تتكسر . .

وأحياناً أشعر أن رأسى تشبه مصنع تفريخ الكتاكيت . . وعملية التفريخ لا تتم فيه بالطرق الحديثة . . بطرق الزراير . . وإنما بالطرق البلدية جداً . . فهناك عدد من الدجاج يتنام على البيض . . والبيض ترتفع درجة حرارته وبعد أيام تخرج الكتاكيت . . ولذلك يجب أن يبقى الدجاج على البيض وأن ألزم الهدوء . . وفعلاً ألزم الهدوء وأناام وأنا جالس حتى

لا ينكسر البيض في رأسى .. وأفاجأ بأن في رأسى معركة . واكشف بعد ذلك أن الذى ينام على البيض ليس دجاجاً وإنما هو عدد من الديوك والديوك لا صبر لها على الرقاد . فالنوم على البيض كالحمل والولادة والرضاعة من أعمال الإناث . ولا تكاد الديوك ترى صورة امرأة جميلة أو أغنية مثيرة حتى تهرب وتضرب رأسى .. تريد أن تحطم الأقفاص .. تريد أن تهرب .. وأسمع الصداع وهو « يكاكى » فى رأسى .. وتدور معركة الديوك فى رأسى .. وتنخفض درجة حرارة البيض ويفسد .. وتجىء أفكارى ممشئة |

وأحياناً أحس أن رأسى يشبه أسطح البيوت المجاورة لبيتنا .. خالية فارغة .. ليس فيها إلا بقايا كل شىء .. صناديق فارغة وبلايص وأشولة .. وبعض الحياة .. حشرات تهرب من القطط ، وقطط من الكلاب ، وكلاب تهرب من « السماوى » والسماوى يكشر فى وجوه الناس وهى تلعنه .. وأتمنى أن يجىء اليوم الذى أبنى فيه بيتاً له أساس متين .. أساس عميق أبنى عليه صرحاً عقلياً من عشرات الأدوار .. وأصحو وأنام على هذا الأمل .. ولكن فى كل مرة أهرش فى رأسى لا ينزل إلا التراب وإلا العلب الصفيح ..

وأحياناً أشعر أننى أحمل فوق كتفى صندوقاً من الرمل .. جافاً مفككاً .. إنه قطعة من الصحراء . وأنتظر المطر . وأفعل كما يفعل البدو فى الصحراء .. أنتظر وأنتظر .. وأصلى صلاة المطر .. وأرفع يدي .. ثم أمدهما أمامى ، وكأن كل كف طبق ينتظر الحسنة من السماء .. وقد

تسقط من السماء قطرات يبتلعها الرمل العطشان .. وأحياناً تنزل السيول ..
ويبتلعها الرمل .. وعلى القليل من الماء ينبت الشعير والقمح .. ولا تمضي
سوى شهور ويعود الجفاف ويلتهب الرمل .. ويحرقني من جديد .. وأكرر
صلاتي . وندائي ، ولكن لا حياة لمن تنادي !

قوم يا شيخ !

الناس معادن : ذهب وفضة ونحاس . معادن حقيقية ومعادن زائفة .
ولا بد من غسلها من حين لآخر . بالنار بالدموع بالتراب ، حتى لا
تصدأ ، فتصبح حياتنا سخيفة بليدة . .

آه لو كان يمكن قلب هذا الكائن الإنسان تماماً كالجوارب
والبنطلونات . . ليكون الجسم في الداخل ، والنفس في الخارج . . آه لو
كان يمكن غسل النفس كما نغسل المعدة والأذن والعين . .

ذهبت أمس إلى أحد الملاحى الليلية وفى نيتى أن يتحول هذا الملهى
إلى حمام تركى سباحة فيه روحى . بل فى نيتى أن أجعل روحى تغرق
وحى لو استغاثت فلن ألقى لها بطوق النجاة ولا حتى بقشة صغيرة . .
واخترت إحدى المناضد .

وتلفت ورائى . لا أعرف أحداً . وتطلعت أمامى لأعرف أحداً . . الأضواء
تخفت . . المصابيح كأنها ثمار عصرتها يد فى الظلام فلم تترك فيها إلا
البذور والقشور .

وانسابت النغمات والكلمات الإيطالية الدافئة الهامسة . . كل
كلمة كأنها أصبح ناعمة تداعب الأذن . كل أغنية كأنها منديل
حرير . . أو عشرينات من أوراق الورد تتناثر علينا . . طلبت من المطربة

أغنية فضحكت . . وأغنية أخرى فازداد ضحكها وقالت : إن والدى
يحب نفس الأغاني !

يعنى قصدها أن الأغنيات التى طلبتها قديمة . يعنى كأننى طلبت
أغنيات لسلامة حجازى وكامل الحلوى ، ولم أطلب أغنية لعبد الحليم
حافظ . .

وفجأة أحسست أن هذا الملهى أو هذا الحمام الذى جئت أستحم
فيه ليس مريحاً كأن الموسيقى والأغاني والناس ماء راكد استحم فيه كثيرون .
إن الماء ليس صافياً . . لماذا ؟ فقد وجدت الأغاني التى تردددها المطربة
لها نظير عندنا . . بل إنها نفس الأغاني . . فهناك أغنية تقول : « زى
زمان وأكثر . . حبيبتك وحاجبك على طول . . » وهى خليط من أغنية
لأم كلثوم وأخرى لعبد المطلب .

وأغنية أخرى تقول : « حكايتى دى كانت حكاية . . حكاية حب
من البداية للنهاية » كأنها أغنية شادية . .

وأغنية ثالثة تقول : « بيتو . . يا واد يا بيتو . . حبيبتك . . قوى
افتحي له الباب . . قوى ا » وهى أغنية نصفها لفائدة كامل ونصفها
لفائزة أحمد .

وأغنية رابعة تقول : « أنا زى ما أنا . . وأنت زى ما أنت . . لا أنا
باتغير ولا أنت بتتغير » وهى عكس أغنية لبللى مراد . .

وأمسكت ورقة وكتبت عليها ، وبعثت بها للمطربة . قرأت الورقة
وضحكت . وانتظرت أنا أغنية وأغنية ورقصة واستراحة . ولم يحدث شئ .

فكتبت ورقة أخرى . رأتها المطربة وضحكت . وهزت رأسها . وانتظرت .
وأمسكت ورقة وكتبت مرة ثالثة . . ورأيت الدهشة في عيني المطربة كأنها
تسلمت ورقة الطلاق . وأخيراً جاءت تقول لى : أنا مش قلت لك موافقة؟

— طيب فين بتي ا

— بكرة . . .

— ودلوقت إيه المانع مش مستعدة والا إيه ؟

— أمال بتقولى إنك موافقة على إيه ؟

— موافقة إنك تكلمنى بالتليفون . .

— لا ! لا ! . . الى أنا كتبتة فى الورقة . . دا اسم أغنية . . الأغنية

بتقول : أقدر أكلملك فى التليفون . .

وضحكنا . . ولكنها حرمتنى من أحسن أغنية سمعتها منذ سنوات

فى روما . . فالأغنية تقول : « أقدر أكلملك فى التليفون . أملى . منايا .

أقول لك أى كلام . بس أكلملك . طبعاً أكلملك : أقدر أكلملك .

يمكن أكون مشغولة . أبعث لك أختى . خد بالك . إنها أصغر منى

وأحلى منى ، وأشقى منى . ولكن أنا مش خائفة . إنها تحب شاباً يحبها .

طبعاً أكلملك . . تعرف ؟ أقول لك حاجة . . أنا ما عنديش تليفون . .

دا مجرد أمل . . حلم . حتى فى أحلامى بأكلملك . ومن غير تليفون طبعاً .

طبعاً أقدر أكلملك . . »

واشتعلت النيران فى المصاييح وفى السقف وفى أجسام الراقصات وفينا .

وانتفض الناس كأنهم عادوا إلى حياة الكهوف . وانفتحت شهيتهم للطعام

والكلام والصراخ . وتطلعت إلى الأجسام السليمة الحلوة التي أكلتها
النيران . . . ووقعت عيني على العرق الذي يتصبب من الأجسام . . هذا
العرق هو دموع اليد والعنق والساق . . وأنظر إلى الوجوه فأجدها تضحك . .
وإلى الوجوه فأرى عليها أصباغاً وألواناً . .

وأقول في نفسي : إنهم مثلى . . وأراهم يقفزون يميناً وشمالاً ويتساقطون
على الأرض في رشاقة ويضحكون كأنهم ولدوا الآن ، وكأنهم رأوا الدنيا
لأول مرة . . وأنظر في عيونهم . فأرى أن العيون لا تشارك في هذا
الضحك . . كأن العيون نوافذ تطل منها نفوس متفرجة . . نفوس لا
شأن لها في هذا كله . كل هذه الموسيقى ، وهذا الحريق وهذا الدخان .
وأقول في نفسي : إنهم مثلى . .

وعندما تنتهى الرقصات . . أرى وجوهاً باهتة . . شاحبة مرهقة ،
تسترت عليها الموسيقى والأضواء والعطور . . ورسمها وزفها لنا وأخرجها فنان
عظيم اسمه : الجوع . .

وساعده في الإخراج : المال والبحث عن جديد . والبحث عن
غسيل للنفس . .

وأقول في نفسي : إنهم مثلى !

إنهم يتعذبون ساعات لكي يتسموا للناس دقائق . . إنهم مثلى !
إن الراقصات والراقصين يظهرون على المسرح دقائق ولكن هذه
الدقائق تستغرق منهم الساعات الطويلة من التعب والعرق والألم والقيود .
كل هذا دون أن يراهم أحد . . إنهم مثلى !

وأحسست طعماً مرّاً على لساني . . وأحسست كأن نفسي « تتفكك »
 في داخلي ، وأني عاجز عن غسلها أو حتى رشها بالموسيقى أو الغناء . .
 وأخيراً قلت في نفسي : يا شيخ قوم . . أنت مش وش راحة . . قوم
 يا شيخ !

وقمت ! لقد حاولت أن أغسل نفسي ، فانكسرت مني ...!!

تراب الإمامي

التراب مر ، والغاز خائق ، والأصوات فوضى ، وبعد منتصف الليل . . وأناس في جلايب ، يروحون ويحيثون ، ووجوههم صفراء ، من الغاز أو من التراب ، أو من السهر ، أو من التعب . . وأمام مسجد الشيخ إسماعيل الأمباني في إمبابة . اليوم آخر أيام المولد . مولد هذا الشيخ الذي لا يعرف أحد من أين جاء ولا لماذا اختار هذا البلد وهذا المكان وهذا اليوم . أما اليوم فتحدده وزارة الأوقاف ، سواء كان الشيخ ولد فيه أو لم يولد . أما لماذا جاء إلى هذا البلد فيقال إنه هاجر من بلده .. وما هو بلده؟ لا أحد يعرف . ويقال إنه سكن في بيت سيدة عجوز . وفي إحدى غرف الطابق العلوى من بيتها . وكان رجلاً طيباً يصلي دائماً ويصوم كثيراً ، ولا يراه الناس إلا نادراً . ويقال إن أحداً لم يره يشتري طعاماً ولا شرباً . ولم يره أحد يغسل ملابسه . ويقال إن هذا الشيخ كان يختفى نهاراً ويظهر ليلاً . ويقال إنه كان يمشى فوق أسطح المنازل . وفي يوم ذهبت صاحبة البيت تطلب منه الإيجار - ككل صاحبات البيوت - ولم يكن في ذلك الوقت خطاب الإنذار ولا التهديد ولا الحجز ولا الحبس . . إلخ المزايا التي يستمتع بها المستأجر الحديث ! ويقال إنها وجدت الشيخ لإسماعيل ميتاً، ووجدت

هالة من الضوء تخرج من النافذة. ووجدت تحت رأسه ذهباً. إن صاحبة البيت لم تنزعج من موت هذا الرجل الطيب ، وإنما راحت تفتش في ملابسه . . وعندما اطمأنت إلى هذا الكثر قامت بالدعاية الانتخابية له وروت للناس معجزاته وكراماته . لقد أخذت الذهب ودفعت الثمن ! وكان الشيخ إسماعيل لهذه الأسباب وعشرات أخرى شيخاً صاحب كرامات فالفاتحة له . لقد قرأ هذه الفاتحة الليلة ألف من أبناء الريف . جاءوا إليه وهم لا يعرفون من هو ، وناموا حوله رجالاً ونساءً وأطفالاً . وشربوا القهوة والشاي والبوظة وامتلأت صدورهم بالحشيش . . الحشيش والتراب والغاز والطلبة و « فتيات الجيша » المصرية في ملابس ذابلة كأنها بشرتهن أو وجوههن أو حياتهن بعد منتصف كل ليلة . تقف فتاة الجيша ترقص للزبائن أو المجاورين للشيخ إسماعيل الإمبابي ، واحداً واحداً . . وكل منهم يملأ يده منها . . من صدرها العاري المتحرك ، ويمسك وجهها ويديره ناحيته ويقرصها ويعطيها القرش . . ويعود يملأ صدره من الجوزة ، وفيه بكوب الشاي ويعتدل في جلسته ويطمئن على شبابه . والفاتحة لسيدنا الإمبابي .

الدين والجنس معاً ، يد في يد ، شيخ وراقصة ، ما خور ومقام . هناك من يرقص وهناك من يبيع المصاحف ، وهناك من ينشد التواشيح وهناك من يطاهر الأطفال .

الدين والجنس معاً . وهذا موجود من قديم العصور . فقد كانت المعابد في بابل والهند واليونان ومصر هي أماكن المتعة الجنسية وكان رجال

الدين هم الذين يديرون هذه المعابد ويختارون عشيقاتهم من الكاهنات و « الراهبات » . . وكانت أعياد الحصاد والحصولية كلها صلوات للآلهة ، ومتعاً لرجال الدين ، وكما يفعل رجال الدين ، يفعل المؤمنون بهم . .

ومواطنونا في مولد سيدى إسماعيل لا يعرفون هذه الحقائق — إن كانت حقائق — ولكنهم يحيئون من الريف ، بالجلايب والطواق والعصى . ويخوضون في هذا البحر الغازى المعطر الصاخب الراقص ويعيشون أياماً . إنها فرصة يتحررون فيها من حمل الفأس والانحناءة على الأرض ، ويلبسون الأحذية ويضعون المحافظ في جيوبهم ويضحكون للحمص والحلاوة ، والأرجواز وألعاب القوى و « السفيرة عزيزة » . فهذا هو المهرجان الذى يربطهم بالحياة .

ففيه المسرح والموسيقى والرقص والغناء وبكاء المواويل ودوخة الجوزة وشاى لله ياسيدى إسماعيل . . وما حدثش واخذ منها حاجة ! البركة ياسيدى إسماعيل . .

وسيدى إسماعيل يوزع البركة ولا يبخل بها على أحد . . إنه يعطيها للبائع الذى يضحك على عقل هؤلاء الريفيين السذج ، ويعطيها للريشى الذى باع زوجين من البط واشترى بثمانها حشيشاً ثم حمل ابنه الصغير إلى صندوق فيه ميكرفون وفي الميكرفون صوت صارخ أمام مقام الشيخ إسماعيل ويقول : اقطع . . اقطع يا حاج محمود . . يا أبو إيد خفيفة يا حاج . . والحاج محمود هو : المطاهر . . أى الرجل الذى « يطاهر » الأطفال !

الجنس والدين معاً في مولد سيدى إسماعيل ، أو أى سيدى آخر ..
 وأكون ظالماً لو قارنت بين هذا المولد في إمبابية وبين الموالد التى رأيتها
 في ألمانيا ، لأنها ليست موالد مشايخ ، ولكنها موالد آلهة ، موالد عنب
 وتفايح . . موالد نظيفة جميلة ليس فيها الحاج محمود ، ولا البوطة ولا
 عربات المصارين بالسمنة ، ولا فتيات « الخيشا » - نسبة إلى ملايسهن -
 ولكنى أكون ظالماً - وغيرى كذلك - إذا طالبت بإلغاء الموالد وإلغاء
 أعياد ميلاد المشايخ . فهذه الموالد مواسم للبيع والشراء . بيع الحمص والسودانى
 والبلح وأمعاء الحيوانات والخدرات وهى ، أيضاً أيام للراحة في حياة أبناء
 الريف . لأنها إجازاتهن السنوية ، لأنها نداء الدين والجنس معاً . لأنهم
 يرحلون ، وإذا أخطأوا استغفروا الشيخ الإمبابى . فهو وحده الذى يحمل
 عنهم أخطاءهم . إنه هو الذى يمسك الأستىكة المباركة ويمحو ذنوبهم
 من اللوح المسطور المستور .

وامتلأت بالتراب : في في وفي هينى وفي نفسى وأيقنت أن شعبنا فقير
 مريض . . أنهم تراب يدب على تراب . . أنهم أسوأ من التراب والسباح ،
 تتزاحم عليهم أفكار وأحلام كالذباب والبعوض . جاءوا لينسوا الفأس
 والحرث ومباحب الأرض ودودة المش ، ويدركوا نصيبهم من بركة
 الشيخ إسماعيل الإمبابى . فأضافوا إلى ترابهم ، تراباً آخر . .

الفاتحة لك يا سيدنا الإمبابى !

الشيخة عزيزة

كبدى عليك يا صبية . . .

كبدى على الفلاحة البيضاء التى تمد رجلها وتسند ظهرها إلى الحائط
وتعطيك يديها وتقول : أنت محروس ؟
فأقول لها : أبوه أنا محروس .

فتسحب الطرحة البيضاء على وجهها وتقول : الحمد لله على السلامة
يا موى محروس . .
وأقبل يدها . .

فتاة ككل فتيات الريف . . ولكنها طويلة عريضة بيضاء كلها
حياء ، ثوبها أسود ، وعقدها أصفر ، وأساورها من فضة ، وخلخالها كذلك ،
ولها دقة زرقاء ، ولها حسنة خفيفة . إنها آخر نقطة من قلم الطبيعة في
هذا الموال الربى الجميل الذى يتردد بين البيت والترعة .

إذا رآها أبناء القرية . . أحسوا كأنهم أمام ملك من الملوك . . والملك
لا يعرفهم . . . ولذلك يجب أن يقدموا له أوراق اعتمادهم . . ليرفع هذا
طرف ثوبه ليكشف من لباسه الحديد أو حداله الحديد . . أو يكشف
عن الصدىرى أو يلعب بحافظة نقوده أو يغنى . . أو يلعن كلباً عابراً
أو ينادى اسماً وهمياً . . كلهم كذلك . .

حتى أبوها كان يراها فيخرج مسبحته ويدعو الله ويقول : والله نفسي
أفرح بك يا عزيزة . . والله لا يليق بك إلا ابن العمدة . . .

إنه ابن العمدة فعلا الذي يشغلها . . إنه أحسن أبناء القرية . أليس
أبوه عمدة ؟ وهل في البلد أحسن من العمدة . . في العالم كله . . لا أحد
إلا العمدة . . إنه هو ابن العمدة الذي يشغلها والذي تفكر فيه . . وعزيزة
لا تعرف كلمة « التفكير » . . ولكن كل حياتها الآن تفكير . . إذا
نامت تعلقت بين النوم واليقظة . وإذا سارت فلأنها تخوض في شيء
بين النوم واليقظة . . كل حياتها كضباب الفجر . . والشمس لا تطلع ،
لأن ابن العمدة لا يظهر إلا مرة في الإجازة السنوية . . وإذا ظهر فلأنها
لا تراه . وإذا رآته فمرة واحدة . وإذا رآته فلأنها لا تعرف كيف تفتح
عينها فيه . . إنها تحس أن رقبتها كفرع الحمير . غليظ ناشف وأن
هناك ألف بلاص على رأسها . . إنها لا تعرف كيف تنظر إليه . . إنه
ابن العمدة وهي بنت الخفير . .

وتوالت الأيام والسنين وطال ليلاها . وضاق صدرها . والصبر نفذ .
والطعام يوضع أمامها وتحمله على أطراف أصابعها وتلقى به من النافذة
حتى لا تراها أمها . ولا يسمعها أبوها . . ولم تعد تمشي على الأرض وإنما
فرشت الأرض بالحصير . . إنها بدأت تصلي . . إنها ككل الصبايا
إذا حارت الواحدة وعجزت اتجهت إلى الله . . ولكنها في الصلاة لا تستطيع
أن تنسى ما يقال عن بنات المدن وما يفعلن مع أبناء الريف . . مع ابن
عمدتها . . إن كل فتاة تتمناه لها وتتمناه لأعز إنسان عندها . . والله وحده

هو الذى سينصرها على كل بنات المدن ويرد إليها ابن العمدة فى جلبابه الأبيض . . والعصا فى يده . والسيجارة فى فمه . وكلمة السلام على شفثيه يطلقها دائماً كلما رأى أحداً من أبناء القرية .

وازداد ضعفها وطال نومها . . وكرهت النوم لأنه يحطم جسدها . وكرهت اليقظة لأنها تملأ عليها البيت بأبيها وأُمها وخالاتها وعماتها وبنات الجيران . . كلهم جلسوا حولها وكل واحدة ترميها أو تهديها أو تغريها أو توجعها أو تلطمها بكلمة أو بصرخة أو بحكمة أو بشهيدة .

والتقى الليل والنهار فى عينها وفى أذنيها وفى غرفتها . . فهى لا تعرف الفرق بين أذان الفجر وأذان العشاء . . فكل أيامها ظلام . .

إنها عين أصابتها - هكذا تقول أمها .

إنه ضعف وقلة أكل - هكذا يقول أبوها .

والنبي البنت عليها أسياد - هكذا تقول خالاتها وعماتها .

يا اختى بسلامتها بالها مشغول - هكذا تقول بائعة المناديل والصابون

المعطر . .

افسحوا لى الطريق - هكذا يقول طبيب المركز .

ونامت هى عن هذا كله وتمددت على سرير أسود . وسحبت على

وجهها الغطاء . تدفع عن أنفها البخور . وحتى لا تصيبها حبات الملح .

أو قطرات الماء من أيدي جيرانها . وهم يفقأون العيون الحاسدة ، ويرجمون الشياطين التى سكنت البيت .

وتلفت الطبيب يرى الشباب والجمال والهدوء والندى . . وعيوناً

كلوز القطن، ولونا كزهر البرسيم، ولبناً وزبداء وخيط اللؤلؤ .. ويحيى
الطبيب يوماً بعد يوم . وتراه الصبية وتضحك وتراه وتعتدل في سريرها .
وتراه وتقف وتنهض لتفتح له الباب . . وتذهب إلى بيته لتحمل بعض
البيض والخبز لزوجته . .

ولكن الصبية تغيرت . . لقد نزعّت ملابسها السوداء ولبست البيضاء ..
الجلباب أبيض . والقميص أبيض والطرحة بيضاء . والعقد أصبح مسبحة
طويلة ... فإذا رآها أحد من أبناء القرية قال لها : العافية يا ست الشيخة . .
الدعوات يا شيخة عزيزة . .
وتدعولهم جميعاً . .

ويقال إن الذي أصاب الشيخة عزيزة كان بسبب حقن الطبيب . .
ويقال إنها القصة التي سمعتها عن زواج محروس . . أو الحمى التي
أشعلت دماها . وشوت لحمها وأطارت عقلها . .

لا أحد يعرف سبباً لهذا التغير كله . . ولكن القليلين جداً هم الذين
يقولون إنه الحب . . وإنها الصدمة التي أسقطت كيائها . وعندما سقط
ارتفع الغبار . ثم تماسك هذا الغبار الأبيض وأصبح الشيخة عزيزة .

واليوم ظهرها إلى الحائط . وتجلس على حصير . وفي يدها مسبحة .
ورجلاها . . ممدودتان . . وجميلة وحولها طفلان يلعبان . إنهما ولدا
« محروس » ابن العمدة من خادمتة « فطومة » . . والشيخة عزيزة لا
تعرفهما . .

وبعد صلاة الجمعة تفرق الناس . كل إلى بيته . وتجمعنا نحن وذهبنا
إليها . .

ونظرت لي وضحكت وقالت : أنت محروس ؟

فقلت : أنا محروس يا ست .

وسحبت طرحتها البيضاء وغطت وجهها ومدت يدها وتعمري ذراعها

وظهر بصيص من صدرها وقالت : الحمد لله على السلامة يامسى محروس .

الله يسلمك يا ست عزيزة . .

وقبلت يديها بشفقى . .

وبعيني قبلتها كلها . .

واستغفرت الله ا

بل أحد الآلهة !

ساعة كاملة يحدثني ولا يراني . إنه في القمة . وسكان القمم يرون كل شيء صغيراً أو لا يرونه . وفي عبارة مسرحية حزينة قال : انظروا أيها الناس . سيجيء ذلك اليوم . سأكون إلهاً !

صاحب هذه العبارة والعبارات التالية شاب في العشرين من عمره . نحيل زائع العينين . هارب اللون . لا طعم للحياة عنده . لأنه فقد أسنان الشباب ولا معنى لهذه الدنيا كلها . فهو يراها بعين شيخ يائس أو ملاك طاهر .

إنه يتكلم دائماً ويقول : لم أحضر لاستشارتك . أنا اتخذت قراراً . فلن أهتم بشيء مما أدوسه بقدمي . فالذي أدوسه هو الذي سيفنى . أما الذي فوق رأسي فهو الذي سيبقى . كل ما يعلو رأسي من نجوم وشمس وقمر . كل هذا هو الخلود . وأنا مشغول بالخلود بالنجوم التي تلمع دائماً . وأنا سأبقى مثلها . لأنني أعيش عليها . والذي يعيش على الفكر يبقى كالفكر . وأنتم ماذا تصنعون . الورق والخبر سينساه التاريخ . الشهرة والمجد أكاذيب ، تكتبونها وتصدقونها . المال قطع من المعدن الفاني تصنعونها وتجرون وراءها وتعبدونها ما حياتكم ؟ ما آمالكم ما دنياكم . ودقت النظر فيه مرة أخرى . وكدت أسأله . فأجابني : ماذا

ستقول عني ؟ . . مجنون . أرني عاقلاً واحداً في هذه الدنيا ، الجاهل الذي يقتل إنساناً بريئاً . ماذا تسميه ؟ مجنون . والعالم العبقرى الذي يقتل الألوف من الأبرياء ماذا تسميه ؟ عبقرى . بل مجنون ، لا أحد عاقل في هذا العالم . لا أنا ولا أنت . هذه حقيقة لم أعرفها من الكتب التى تضعها أمامك ولكن من نفسى . إننى لا أنتظر السماء حتى تسقط الماء الذى يبيل ريقى . ولكننى أناذى الماء من داخل من جوف الأرض فأفكارى « ارتوازية » بل من جوف الوجود . إن أفكارى من الكون . إنها كالأشعة الكونية .. ستقول مجنون أيضاً .

وعرف هذا الشاب العزلة والغرفة المظلمة . والفراش البارد . والليل الطويل ولوى ذراعيه ويدبه . وضغط على نفسه بجسمه وأسنانه وراح يحلم بكل شيء يتمناه ولا يناله .. وجعل يلوى أفكاره كما يلوى جسمه . ومن أفكاره يقيم سلماً طويلاً إلى النجوم . وبعد أن يصعد هذا السلم الطويل يتساقط رأساً ويداً ورجلاً كما يفعل الحواة في الهند . .

قلت له : أنت في خلاف مع أهلك .

قال : طبعاً .

قلت : ومع أصدقائك .

قال : طبعاً .

قلت : ومع صديقاتك .

وكان لابد أن ينظر إلى مصدر هذا السؤال . إلى فى . وكان الذى

اختنى فى فى أفعى سامة . يريد أن ينتزعها بيديه أو يطلق عليها الرصاص .

ولكن عاد التسامح إلى وجهه وقال : فاطمة ؟ لقد تركتها . أحببتها عشر سنوات . لم أنطق بكلمة نائية . جعلت مسافة بيني وبينها . والذين يحبون يعرفون معنى المسافة . ولكن سبقتني إليها شاب آخر يسكن في نفس البيت . وأراها كل يوم الآن تلبس له وتزين له وتعبه أيضاً . . ولكن جمال المرأة لن يبتى . هل رأيت العدل ؟ أبداً ! وإنك ترى الناس العادلين ويبقى العادلون ويبقى العدل . هل رأيت الجمال ؟ أبداً . إنك ترى مخلوقات جميلة . ستبقى كلها . ويبقى الجمال نفسه .

وقلت : وهي لا تحدثك ؟

قال ، وهو يضغط على نفسه ويلف ذراعيه حوله ويضم ساقيه كأنه نائم في فراشه : وسلوى قد أحببت عاملاً . أحببت أحد العمال .. طويل عريض . يكسب القرش ويقدمه لها . . هذه عرفتها وأنا في السابعة من عمري . وكنت أصنع لها المعجزات . كنت أمسك العصا في يدي وأقف على سطح البيت وأضع العصا في وجه القمر . وأجعل من القمر مظلة تقيها مصائب الليل . أى مصائب الدنيا كلها . . ولكنها فضلت المصائب وسقطت العصا من يدي ونزلت وبقي القمر ينتظرني . سأصعد إليه . . لست مجنوناً !

وسكت ثم قال : سأعيش عيشة نبيلة أقصد شريفة سامية . لاحياة النبلاء فأنت تعرفهم . . سأعيش نظيفاً عفيفاً . كالشاعر الإنجليزي بيرون ! قلت : لقد عرف عشرات النساء وأنجب طفلاً من أخته . قال : هذا كذب ، هذا ما تصنعونه أنتم إنكم تشوهون سيرة الذين

ماتوا . سأعيش كالشاعر جيته . أحكم الحكماء .

قلت : وهذا الشاعر قد عرف مائة امرأة على الأقل . وكانت آخر واحدة عرفها في السادسة عشرة وكان هو في السبعين . وكان له ولد من زوجة ابنه .

وكان لابد أن يثور على هذه الاعتراضات التي تندفع كالإبر تحطم أفكاره التي تشبه بالونات الأطفال ولكنه لم يفعل وإنما سحب على وجهه غطاء من الهدوء الشاحب . وأخرج من جيبه ورقة وقال هذا هو الذي سبقني ا

وكانت صورته هو .

وكلام طويل عن الفتيات اللاتي تركته وبحثن عن غيره . أهي قصة العنب المر ؟ أهي قصة الثعلب الذي مد رأسه إلى العنب فلما لم ينله انسحب قائلاً : إن العنب مر . . أهي قصة الشاب الذي مد يده وأفكاره وأحلامه وأوهامه إلى المرأة والدنيا وأعلن أن طعمها مر فترك الدنيا كلها وجعل يعيش في غرفة مقفلة بأفكار مظلمة . إن حنينه إلى القمر قد رددته كثير من العباقره والمجانين . إن قوله بأنه سيكون إلهاً . قد رددته كثير من الفلاسفة . . إنه يسير في خط مستقيم ولكن الاتجاه خاطئ . . إنه كالقنبلة . والقنبلة مجموعة من القوانين العلمية . وهي تسير في خط مستقيم . وهي متفجرة . ولكنها قنبلة مهلكة لغيرها ولما فيها . . وهو كذلك . قنبلة متفجرة قاتلة له وحده ا

وما الفرق بين العقل والجنون . شيء قليل من المبالغة . إن الناس

تحت الجلد متشابهون .

وخرج الشاب وقد تفاهمنا . وكان لنظراتنا معنى واحد هو : الرثاء..

له ولى ا

وكان متواضعاً . إنه لم يعلن أنه الإله الوحيد لهذا العالم كله . وإنما هو أحد الآلهة . . إنه مسكين لا يعرف كيف يتحدث إلى أحد في بيته . أو في الشارع أو المدرسة أو أبيه أو أمه ولا يعرف كيف يأكل ولا كيف ينام . .

مسكين لأنه إله ا

الفندق المفتوح . .

يخلق من الشبه أربعين — عبارة غير مريحة قلبها وأنا أدخل السينما . .
فقد وجدت أمامي نفس الوجه . نفس الجبهة الرخامية . والأنف الروماني
وصدر عال كأنه البركانان « فيزوف » و « استرومبلي » إنها تشبهها
تماماً . . إذا مشيت انحنت إلى الأمام كفصن شجرة تعلقت فيها ثمار
كثيرة . . أو كأنها تجر وراءها موكباً من كل هؤلاء الناس . إنها إذن
ممثلة السينما الإيطالية « اليانوره . . . » . لقد نشرت مجلة « أودجى »
الإيطالية أنها ستحضر إلى مصر لتشارك في افتتاح أحد الفنادق .

لقد قابلتها أول مرة في فندق مينا هاوس . ونشرت لها مجلة « الجليل »
صورها بالمايوه في عز الشتاء وظهرت الصور بالألوان . ولكن « اليانوره »
لم تعجبها الصور . فقد بدت فيها سمينة جداً . و « جداً » هذه معناها
مليحتر واحد ، على الأكثر !

وبعد ذلك قابلتها في روما في العام الماضي . وانتظرت منى أن أقول
لها : ياه انت خسيت كده ليه ؟ ولكنى لم أقل شيئاً من هذا . فنهتني إلى
ذلك . وقد لاحظت فعلاً أنها نقصت هذا المليمتر . . والسبب هو
الفساتين . فقد كانت فساتينها واسعة كجلد اليوسفندي فأصبحت ملتصقة
كجلد البرتقال . وجلسنا نتناقش في الموسيقى والأدب وفي المسرح وفي

السياسة . وقلت لها بصراحة إنها تقلد ممثلة إيطالية أخرى اسمها «البانوره روسي دراجو» وغضبت مني . ولكنها الحقيقة . . وظللنا ساعة كاملة نتذكر طعاماً شرقياً أو مصرياً يبدأ بحرف « واو » هكذا قالت هي . وقالت إنه عبارة عن شوربة خضراء يوضع فيها الأرز والخبز . وأخيراً اكتشف أنها تقصد الملوخية .

يعني بالاختصار هي « صديقة عزيزة » . هي التي اختارت كلمة «صديقة» . أما عزيزة فهي من عندي أنا . وهم أو غرور . كل شيء جائز . ولذلك اندهشت جداً . كيف أنها حضرت إلى مصر ولم تسأل عني . وكيف أنني فوجئت بها في السينما مع شاب ليس وسياً ولا أفيقاً ويجلس في الصلاة وليس في البنوار - يعني الحال من بعضه . وحاولت أن أتجه إليها . ولكن الزحام ورائي والفيلم قد بدأ . وأخيراً جلست في مقعدي . وجلست هي ورائي بصفين . . ولكن رأسي اتجه إليها كأنها القطب الجنوبي ورقبتي عقرب البوصلة وشممت رائحة عطرها . لأنني أعرفه وله قصة واسمه اسكيباريلى . وعطرها يدل عليها كما يدل الدخان على النار . وهي ناز . وحاسة الشم عندي قوية جداً . وكنت أتصور أنني الوحيد بين الناس ولكن قال لي « محمد عبد الوهاب » إنه يتذكر أسماء البلاد والشوارع عن طريق الأنف . . وفي أثناء الفيلم أحسست بوجع في جنبي فابتسمت . لقد ظننت أنها تقرصني ولكن اكتشفت أن المسافة بيني وبينها لا تسمح بهذه المداعبة . . وتحول القرص إلى وخز . . وبدأ ينتقل من مكان إلى مكان . . بل يبدو أنه اتخذ شكلاً انسيابياً،

لقد جعل يتلوى كالثعبان . . . ويقفز من جنبي إلى بطني إلى ظهري . . .
لقد أحسست كأن في داخلي ثعباناً يطارد عصفورة في قفص صدرى .
ثم ابتلع الثعبان العصفورة ولم يبق إلا هو وحده متكوماً في جنبي الأيسر .
ونهضت من مكاني أدوس أقدام الناس . وأحجب عنهم الفيلم ولم
أنس أن أنظر ورأى . . . إنها هي . . . وإذا لم تخدعني أذنأي لقد سمعتها
تتكلم العربية . . . وآهت أذنى . فاللغة العربية مطبوعة على لسانها
كالأفلام الأجنبية .

وفي الفراش بالتليفون قال لى الدكتور إنه مغص كلوى . . .

إذن ليست هذه « اليانوره » . . . وإلا لانتقل الألم من الكلى إلى
فوق . . . إلى القندوق الذى وجدته مفتوحاً ودخلته . . . وأقفلت أبوابه على
حقائبها ونسيت مفتاحه معى : إلى قلبى !

ساعة من الراحة !

حاولت أن أتملص من الحبال التي تربطني كل صباح كأني خيمة صغيرة في مهب الريح . . حبال غريبة . . إنها تسحب الغطاء من فوقى ، ثم تسحبني من فوق الفراش ، وتدفعني أمام المرأة ، وترمي في وجهي بالفرشاة والصابون ، وتلقى بالملابس فوقى ، وتضرب الباب ورأى وتركلني إلى مكيتي ، وتقلع عيني وتقذف بهما على الورق ، وتلصق سماعة التليفون بأذنى ، وتصب في في خليطاً من الذرة المحروقة ونوى البلح والكافكاو (القهوة يعنى !) . . وتعصر أصابعي على القلم ، وتهز الأرض تحت قدمي ، والدنيا أمامي . . كل يوم أشعر كأني طفل في طريقه إلى المدرسة لأول مرة ، وأكاد أبكي وأقول : عاوز ماما . . !

. . . وأقول « حاولت » أن أمزق هذه الحبال . . وخرجت منها . . وانطلقت إلى الريف . . إلى قرية بالقرب من الزقازيق . . والطريق ناعم ، والأشجار هامة . . ولكنني لا أستطيع أن أملأ عيني بما أرى . . فالسيارات ورأى وأمامي وإلى جوارى وأنا أقاوم في نفسي استعداداً هائلاً للسرحان . . إن غيرى يستطيع أن يقود سيارة ويروى النكت ويداعب فتاة حسناء ويدخن سيجاراً في وقت واحد . . وأنا أستطيع هذا كله بشرط ألا أقود

السيارة . . ولكن هذا لا يهم ما دمت سأمزق هذه الحبال هناك . . بعد هذا الطريق . . ستحرقها أشعة الشمس ، ستحرقها دموع المظلومين من الفلاحين ، سيبخرها النسيم العليل . . لأننى ذاهب إلى الشمس لكى أراها وهى ترتفع فى ثوب النايلون الذهبى . . أريد أن أرى الشمس التى يصفونها بأنها فى جمال صوفياالورين وبريجيت باردو . . أريد أن أراها وهى تغتسل فى طين البرك ، ثم تتسلق السماء على بيوت من الوحل . . وتبدو جميلة . . . أريد أن أستحم مثلها ، فأترك طين المدينة وجبرها ، وأبدو لا فى جمال مارلين مونرو ، ولكن فى رشاقة زوجها وصفاء عقله . . ودخلت القرية .. وعلى ضفة جدولها الصغير ، وتحت أشجارها جعلت أتطلع فى صفحة قائمة كأنها قهوة مخلوطة باللبن . . ورأيت ما يراه النائم . . رأيت قرية أرضها من الرخام أو من البلاستيك . . بيوتها من أحجار ناعمة ، إذا لمستها بيدك غسلت يدك كأنها قطع من الصابون .. وفى نوافذها ورود ، وبين الورد طيور ، وعلى أبواب البيوت يقف شبان فيهم حياة وفى عيونهم ذكاء . . كل شئ فى القرية له اسم . . البيوت والشوارع والناس والكلاب والأبقار . . لها أسماء يعنى لها قيمة ، يعنى لها أشياء تخصها وحدها . .

وكان حبلا شدنى من عنقى واعتدلت . ولم أكن أحلم وإنما تذكرت
قرى سويسرا !

والساكن الحقيقى للقرية المصرية لا يمكن أن تراه . .
لأنه رجل هزيل يعيش فى ظل جاموسته والجاموسة هى مصدر حياته . .

إنها الأرض والمحصول والفيضان ، وبنك التسليف الزراعى ، وهى المصطبة العالية التى يقف فوقها ليشكر الله على ما أعطاه ! إن الجاموسة هى التى تفتح بيته . . لا بأن تضربه بقرنها . . ولكن هى رأسماله الحى ، هى اللبن الذى يشربه ويبيعه ويلبس منه هو وزوجته وأولاده . . إنه يجد فى قربها كل حب ، وفى رائحتها كل عطر . . وكل محاولة للتفريق بينه وبينها فى الحياة أو فى النوم أو فى المعاملة . . يرفضها وبشور عليها . . ونظرت إلى بعض الشبان الذين تمددوا على جانب من التربة .

وقلت : من هؤلاء ؟

وعرفت أنهم بعض الشبان التافهين الذين تعلموا فى المدرسة واكتفوا بقدر هزيل من المعرفة . . ورفضوا أن يظلوا فلاحين ، وأن يذهبوا إلى المدينة . . لقد تركوا المحراث إلى القلم ، والحقل إلى المدرسة . . وأصبحوا يرون كل شىء صغيراً تافهاً . فالقرية أصبحت فى حجم الحذاء ، والأب فى حجم الفأر ، والأم فى حجم الدجاجة . .

ونظرت فى ساعتى . . وأحسست أننى كعقرب الدقائق يتحرك على خطوط فى دائرة مقفلة . . وأن هذه الخطوط لم ترحم قدمى ولا رأسى . . وأننى جئت هنا أطلب المستحيل . . لقد تمنيت أن تعلن الطبيعة حالة الطوارئ فى القرية . . فيلبس الناس أجمل الأزياء ، وأن تغتسل التربة بالماء والصابون ، ويبدو الفلاحون وكأنهم على مسرح الأوبرا يمثلون قصة « القرية السعيدة » أو القرية النموذجية فى المريخ .

ونهضت كأننى شراع مركب النف حوله المراكبية وشدوا حباله ،

لكى تنلغ السفينة من وحل وطين وعرق وقرف . . وأنساب إلى مكتبي إلى
 الورق والحبر. وأنظر من النافذة فأجد الشمس تغرب وأرى الدخان وأسمع
 الضوضاء تنهال على الدخان وعلى رأسي فتغرب جميعاً مع الشمس !
 وتلمست الحبال الملفوفة حول رأسي وعنق قلبي . . وحمدت الله ،
 فقد كانت أقوى مما تركتها !

وهذه هي الميزة الوحيدة للريف : إنه ينعش إحساسنا ويجلو أفكارنا
 فنشعر بمتاعبنا أوضح وأقوى !

موصوف لى : ب . ب

همس فى أذنى قائلا : ب . ب . ب . هذه هى الوصفة الأخيرة !
جربها . دلك من كلام الدكاترة . . كلامهم فارغ ! اسألنى أنا !
وب . ب هذه مع الأسف ليست اختصاراً لاسم كوكب السيما :
بريجيت باردو ! ولكن اختصاراً لشيء آخر . .

وذهبت فوراً إلى « النادى الثقافى » وطلبت من الخواجة خرالامبو أن
يصنع لى هذه الوصفه فوراً فإننى لم أنم منذ ثلاثة أيام لا ليلاً ولا نهاراً .
لقد جربت الحبوب المنومة . لقد جعلتنى أنام . أسقط فى بئر عميقة
مظلمة ولا أعرف كيف نزلت إليها . ولكن فى الصباح أعرف بوضوح
أننى سقطت برأسى . فرأسى ما يزال يوجعنى . وما يزال دائئاً . كان
القرص المنوم حشرة غريبة ، تسللت إلى داخلى وسكنت هناك . وكان
لا بد أن أقاومها بالمبيدات الحشرية من الشاى السادة والقهوة المرة . . وأظلم
أطاردها حتى تختفى . ويحىء الليل ولا أعرف كيف أنام . . فأعود إلى
الأقراص المنومة . . وإلى الشاى والقهوة . . وأخيراً قررت أن أعدل عن
هذه المعركة . . وأن أبحث عن طريقة أخرى . . .

قال الخبراء : عليك باللبن الساخن قبل النوم . .
وكنت أشرب ما تنتجه بقرة هولندية . ويظل الأرق يمسك رأسى

كأنه كورسيه من حديد . .

وقال الخبراء : بل عليك بالدش الساخن .

في الصيف ؟ في هذا الحر : ؟ يقولون : ما يهمش ! .

وعانيت حرارة الماء ، وحرارة الهواء ، واكتويت بالعرق . وهلك النوم في داخلي . . وجاء ورثة النوم : الصداع والأرق والإمساك يطالبونني بأن أوقع على كل ساعات الليل كأفني حارس لأحد الورش . . أو عسكري الدورية . . وكنت أفعل .

وقال لي ناقد رياضي : بعض الحركات الانسيابية . . .

وفي الظلام كنت أقول لنفسى : يمين . . شمال . . محلك سر . . إلى الأمام انظر . . كتفاً سلاح . . .

وهرب النوم مني ومن الذين ينامون في الغرفة التي تحتي . . .

آه . . لم يبق أمامك إلا الموسيقى . . إن النوم يتسلق السلام الموسيقية إلى عيون الناس . لماذا ؟ لأن هناك قصة إغريقية قديمة تقول : إله النوم اسمه « مورفيوس » . وكان مورفيوس هذا يمسك مزماراً ويتفخ فيه . . فإذا الطيور تتساقط من السماء ، والوحوش تخرج من الغابات ، والحشرات تنطلق من الصخور . . وكلها تمشي وراءه وهي مغمضة العيون . إن موسيقاه هي النوم . . وفتحت الراديو وكانت موسيقى . . روك أند رول . وتشاتشاتشا . . وباساديلو . . وتويست ويبدو أن السلام الموسيقية لهذه الرقصات عصبية متشنجة . لقد كانت تقذف بالنوم من فوقها بعيداً عنى . . ولم أنم !

ومن النافذة أرى على السطوح المجاورة أناسا ناموا . . تكوموا
 والتروا كأنهم مغص سطحي . . وفي نومهم يتحركون كاللدود في
 العطين . . وقد أسند كل منهم رأسه إلى شبه وسادة . . من قوالب المطوب . .
 وهات يانوم . . وأتلفت حولى . . الأنوار كأنها عيون ساهرة . . وبدأت
 تطبق أجفانها الواحد بعد الآخر . . والأصوات بدأت تتلاشى . . . إن
 النوم يتمشى من بيت إلى سطح من أب إلى أم إلى طفل إلى كلب . .
 إن النوم ساهر هو الآخر . . مسكين لقد طار النوم من عينه . . ومع ذلك
 لم يشأ أن يمر على غرفتي . . إنها رائحة الوصفة الملعونة : إنها رائحة ب . ب -
 أقصد البيض والبصل !

هارب . . هارب !

غريق فى بئر عميقة . . هذا هو شعورى . . إننى أعرف بالضبط كيف كان يشعر النبى يوسف . . فى الظلام والوحدة والرطوبة واليأس من النجاة . . وأصوات الذئاب عند السطح . وفحيح الأفاعى عند القاع . . وفى يدى حبل أرمى به هنا وهناك كما يفعل رعاة البقر . . لعلى أصيد صديقاً أو زميلاً أو أى أحد . . وكان هذا الحبل هو حبل التليفون أتسلل به إلى البيوت . . إلى بيوت أعرفها وبيوت لا أعرفها . . بصورة آلية . . بل إننى أحياناً أترك أصبعى هى التى تفكر لى وأحس أن قرص التليفون هو جبينى وأنا أهرشه بأصبعى ساعة وراء ساعة . .

ولم أسأل نفسى لماذا أنا غريق ؟ ومنذ متى ؟ وكيف أخرج من هذه الحيرة ؟ لم أسأل نفسى . وإنما استسلمت لهذه الحالة النفسية . فأنا لا أحاسب نفسى أولاً بأول . . وفلتت منى كلمة : هارب ! !

نعم هارب . هذه هى الكلمة التى تصفى تماماً . هارب . فأنا لا أكاد أجد نفسى وحدى حتى أمد يدى إلى التليفون . . أريد أن أشغل أذنى . . وأمد يدى إلى كتاب أريد أشغل عيني . وأنطلق إلى الشارع أهتم بكل شئ . . أريد أن أشغل رأسى . . وأتراجع مع الناس . . وأحس أنهم يحشون فى مظاهرة احتجاج . . احتجاج ؟ هذه هى كلمة أخرى

تصنفي أيضاً . . فأنا أريد أن أحتج على الموم التي تطاردني دون سبب .

وفي الليل عندما أعود إلى البيت أحاول أن أهرب من اليقظة إلى النوم . . أريد أن أتسلل بنفسى وراء أسلاك شائكة اسمها الأرق . . فألتي بأقراص النوم في حلقى . . أريد أن « أسهى » نفسى وأنام . . وتقوم محاولة ضخمة للتمثيل على نفسى . . فأنا أصبح كالمرح الكبير . . تنطفئ فيه أنوار الصالة بالتدريج . . مصباحاً وراء مصباح . . ثم تضاء الأنوار على المسرح . . وأفرح بانطفاء الأنوار ويدق قلبي الدقات التقليدية . . وأتشبث بالستار . . لا أريدها أن ترتفع . . أريد أن أسد لها على قصة اليوم . . على قصة البئر والغريق . . ومع ذلك ترتفع . . الستار وأراني معلقاً في السقف وأجدني مكرباً على الاستماع إلى مسرحية لا أريدها ولا أحتملها كل ليلة .

ويكنى أن أتقلب في فراشى . . لأصحو من جديد وأحاول مرة أخرى إطفاء الأنوار . . وأشعر أن فكرة واحدة منسلطة على رأسى طول الليل . . وأحاول أن أطردها . . وأحاول أن أتركها حتى تنطفئ وحدها كأنها سيجارة . . وأفاجأ بأن السيجارة قد أصبحت « عقباً » . . وبدلاً من أن ألقى بها بعيداً عنى فلأننى ألقى بها في داخلى . . فتشتعل حرائق كبيرة في نفسى من الدخان والعرق والنار والأرق . . إن الحرائق تولد من سجائر صغيرة . وهذا صحيح مع الأسف !

وأنطلق إلى الساعة في يدى أو على الحائط . . وأشعر أن الساعات

تشبه الدائنين . . كلهم واقفون وكلهم يطالبونني بشيء . . بديونى
 القديمة . . إنهم يشبهون اليهودى شايوك الذى يتقاضى الديون دماً ولحماً .
 وإن شايوك ليس مجرمًا . . إنه ينفذ العقد المبرم بينه وبين المدين . .
 وهو نفس العقد الذى أبرمناه نحن . . فوجودنا هو توقيع كبير على
 وثيقة حياتنا . . وحياتنا عمل . . إما العمل وإما الموت . . والموت ليس
 معناه شيئاً كبيراً . . فحياتى بالنسبة لى شيء هام ، بالنسبة للناس لا قيمة
 لها . . وإذا مت فليس هذا يعنى أحداً سوى . . فأبى مات وأنا أعيش
 بعده . . وجدى مات وأبى عاش بعده . . ووجود الناس اليوم بالملايين
 معناه أن الناس فى استطاعتهم أن يعيشوا بعد أن فقدوا الملايين من الأعداء
 عليهم .

وأحياناً أنظر إلى الساعة . . وأرى عقاربها . . عقارب فعلاً . وأخاف
 إذا اقتربت أنا منها . . وأخاف إذا ابتعدت عنها . .
 هارب أنا . .

هارب من الشيء الذى لا يهم أحداً سوى . . من المهموم
 التى تنبت فوق كأوراق الشجر . . هارب من الذى لا أقوله ،
 ولو قلته لآزداد عذابى . . فإننى أكره أن أرى الرثاء فى عيون الناس ،
 وأكره أن أرى الشفقة على ألسنة الناس . . إننى أحرص على همومى . .
 وأرعاها كما لو كانت قطعاً من الأغنام . . إننى أحرصها وأهش عليها
 والحقيقة أننى أحبها وأحتمى بها . . فأنا الآخر مثلها خائف من ذئب
 اسمه : الناس !

وأبحث عن قرص التليفون أديره . . أبحث عن الرقم الذى كنت
أديره فترتفع مظلة واقية من الغرق . . وأخرى من النجاة . . . إننى
هارب منى !

إنها حكاية غفير

لأسباب كثيرة يطلق أحد أصدقائي على زوجته اسم « الغفير » ربما لأنها تنام دائماً وتتظاهر باليقظة ، أو لأنها تنام دائماً وراء الباب أو تحت الشباك ، أو لأنها لا تكاد تراه حتى تقف على حيلها في حالة « محلك سر » أو لأنها تعوج رقبتها في حالة « إلى اليمين انظر » ثم تضع أحد أطفالها على صدرها في حالة « كتفاً سلاح » ...

وأترك الكلام لصديقي

كل يوم أعود إلى البيت أتصور أنني أخطأت في العنوان . أخطأت في الطابق أو في الشقة . . وأقف وراء الباب في حيرة فأني يقول : زريبة !!! وأذني تقول : ورشة !!! وعيني تقول : ملجأ !!! ..وعقلي يقول : مجنون !!! وقلبي يدق بصوت مرتفع كأنه يصفق لعقلي !!!

وأنا أكره أن أجد الغفير صاحبياً ، وأكره أن أجده نائماً . فإذا كان صاحبياً تحولت بسرعة إلى أحد اللصوص . فالغفير يسألني : أين كنت ومع من ؟ فإذا قلت كنت مع بعض أصدقائي . كان رد الغفير : ومن أين جئت بهذه الرائحة العطرية ؟ وإذا اعترفت بأنني كنت مع بعض الرجال والنساء ، فلا بد أن أذكر اسم كل واحدة ولون فستانها وأين كنت أجلس وماذا قلت وماذا قالت .

وأكره أن أعود إلى البيت فأجد الغفير نائماً . إننى أكره الصمت ، أكره الوحدة . أريد أن أتحدث إلى أحد . أن أقول أى شىء أن العن أحداً أو شيئاً . وقد حدث كثيراً أن عدت إلى البيت فوجدته ساكناً كالمقبرة . فضربت أحد المقاعد برجلى فسقط المقعد وتزحلق على الأرض ... وجاء صوت الغفير من الداخل : مين اللي بره ؟ فقلت : أنا الحرامى !

ورقعت زوجتى بالصوت ١١١ .

وبعد ذلك عرفت أن الغفير لم يكن ساذجاً عندما تصور أننى أنا الحرامى . فأنا فعلاً أحاول أن أسرق هذه الأسرة .. أحاول أن أسرق راحتها ، أن أسرق أموالها إننى أتاثر على أطفالى ، أريد أن أسلبهم والدم . . . وأن أقدمه هدية لفتاة أخرى ، لقد مللت الحياة مع غفير ، وأريد أن أعيش مع زوجة .. فزوجتى غفير يحرس أولادى ويحرس بيتى ويحمى مستقبلهم منى وأريد أن أجرب القيام بدور صاحب البيت ، لا سارق البيت ١١١ .

ولاحظت أخيراً أن زوجتى تسلطنى على أولادها فأنهال عليهم ضرباً . أى أننى أقوم هذه الأيام بدور « نبوت » الغفير .

ولاحظت أيضاً أننى أشعر بارتياح عندما أضرب أولادى . إن أولادى يشبهون الغفير . . فأنا أضرب الغفير فى كل واحد منهم ، فأنا أفقأ عين الغفير فى ابنى الأكبر ، وأكتم أنفاسه فى ابنتى الكبرى ، حتى الطفل الرضيع أتتجهم عليه ، كأننى أحاول أن أردّه إلى مكانه من بطن أمه ١١ .

وكنت أقول لنفسي إن الزواج كحقنة البنج لا يشعر بها الإنسان إلا لحظة واحدة وبعد ذلك لا يدرى بشيء والزواج فعلاً حقنة في العضل وحقنة في العرق وحقنة شرجية وحقنة على يد مأذون !!! .

وهذه الأيام بدأت أشعر بكل هذه الحقن . كأنني أخذت الحقن وأنا في حالة إغماء شديد ، وعندما أفقت أوجعتني جميعاً . إنني مريض بالغبير ... إنني أشعر به في يدي وفي رجلي وفي ظهري وفي جنبي ... إنه مرض متنقل اسمه « الغفرس » على وزن النقرس !!!

وإذا كان النقرس مرض العظام ، فإن « الغفرس » هو مرض العظام أيضاً - أي - أصحاب المصائب العظيمة !!!

كأن حياتي كانت مكتوبة بحبر سري لا يراه أحد . وفجأة بدأ هذا الحبر يظهر حرفاً حرفاً وكلمة كلمة ... ثم أخذت الكلمات تتجمع وتتكوم كأوراق الكوتشينة وأمد يدي لأقلب ورقة وأجد مكتوباً عليها كلمة : شقاء !!!

وأصبحت هذه الأيام شخصاً لا يطاق ... عندما أدخل البيت يشعر كل من في البيت أنني قبلة تسيل لها الدموع والدماء وتنبعث لها روائح كريهة ... فالغبير يقف وإلى جواره « العهدة » - أي الأولاد - والأولاد يتعلق بعضهم ببعض تحت اللحاف وفي دورات المياه . . . وكنيت فيما مضى أدخل البيت كلص ظريف ... أما اليوم فإنني كمجرم عادي جداً ... أفتح الباب وأستند إليه بظهري وأشير بيدي إلى أعلى وأسفل كأنني قائد أوركسترا من الأشباح أو كأنني ناظر مدرسة الصم والبكم !!!

وكنْتُ أصدق فيما مضى أن الزواج كالفيلم الناجح ، يجعلنا نبكى أثناء العرض ثم نصفق في النهاية ، ولكن يبدو أنني دخلت الفيلم من آخره ... صفقت أولاً وبكيت أخيراً ... بل حتى ولا هذا ، فإنني على يقين من أنني دخلت وخرجت من السينما أثناء العرض ... ولذلك أحاول أن أدخل فيلماً جديداً . أحاول أن أذهب إلى السينما قبل ارتفاع الستار .. انتهت أقوال صديقي ...

وفي الأيام الأخيرة اختنى صديقي ، وعرفت أنه ينام نهاراً ، ويصحو ليلاً ... فقد غضب الغفير وعاد إلى أهله وترك « العهدة » كلها في البيت ... وجاء دور صديقي ليقوم بدور الغفير ونبوت الغفير وهو الآن في انتظار اللصوص !

دنيا عم إسماعيل

— قل لي يا عم إسماعيل ... أين كنت أمس ؟

— هنا .

— لم تتحرك ! وأول أمس !

— هنا أيضاً . الدنيا تلاهي !

وعم إسماعيل بائع متجول . . بائع عنده عربة . والعربة لها عجلات ..
ويستطيع أن يدفع العربة أمامه إلى أى مكان فى شارع ٢٦ يوليو . .
ولكن عم إسماعيل مصر على أن يبطل عمل العجلات . ويجعلها تتشبث
بالأرض ؛ أما الدنيا التى تحدث عنها عم إسماعيل فهى لا تزيد على مائة
متر طولاً . . ومتر واحد عرضاً . فهو ينتقل من بيته إلى المكان الذى
يقف فيه بعربته فى الشارع . . إنه لا يعيش فى دنيا . وإنما هو يعيش
فى نفق . فى أنبوبة هوائية . طولها مائة متر وقطرها متر واحد وهذا الممر
الضيق ، هذه القصبة الهوائية ، هذا البلعوم أو ماسورة العادم . . هذه هى
دنيا عم إسماعيل !

وهو لا يسكن هذه الدنيا وحده . وإنما معه أولاده وزوجته وأقاربه
وبعض الباعة المتجولين وكل واحد منهم يعيش فى أنابيب من نوع
خاص . أضيق . أوسع . أقصر . أطول . ولكنها أنابيب . عم إسماعيل دنياه

لا تزيد أبداً منذ عشرين سنة .

وهو لا يعرف من شارع ٢٦ يوليو إلا هذه المساحة . ولا يعرف من القاهرة إلا بعض الأماكن التي كان يتردد عليها وهو شاب أو وهو طفل . والدنيا غيرته . أو تغيرت هي . إنه لا يعرف .

وهو يطلب من الله شيئاً واحداً : السر . .

فإذا مرض يطلب السر . يعنى العلاج .

وإذا تامت الهلوك . يطلب من الله السر . يعنى القلوس . .

وإذا مات — وهذا هو الأهم — أن يجد ثمن الكفن والدفن .

ودنيا عم إسماعيل يتحرك فيها الذئب والوحوش الذين يأكل بعضهم البعض . وهو لا يخاف إلا من الخطافين أو الباعة المتجولين مثله . وهو لذلك يصالحهم ويصافحهم . ويمد لهم يده . . وشعاره : يجب أن تمد يدك دائماً وهى مليئة بشيء . أو إذا لم يكن شيء فلا أقل من الحرارة . . . حرارة السلام والتحية والوداع . يجب أن تمد يدك للناس . تربطك بهم صلة . . هذا أسلم من شرهم .

— وأين تعلمت هذه الأشياء يا عم إسماعيل ؟

— الدنيا يا ولدى . الدنيا علمت الحمار وجعلته يمشى على اليمين

دون أن يطلع على الرصيف .

وترددت فى كلامى مع عم إسماعيل . كلمات : الشخصية .

الحرية والوجود . .

ولاحظت أن كل هذه الكلمات ليس لها أى معنى . ولا أى مدلول .

ولاحظت كأننى أتكلم عن قطع غيار السيارات الكاديلاك لرجل لا يملك
إلا عربة كارو عليها خيار ازداد اصفراراً من الشمس . . . وعليها حبات
من الطماطم وبعض العنب . . .
الشخصية معناها الطماطم . والوجود معناها أن يجد مكاناً بالقرب
من الرصيف . والحرية معناها أن الطماطم تتحرر من ضربة الشمس .
منك تستفيد يا عم إسماعيل . . .

خوازيق الغرام !!

حدث كثيراً أن تقدم أحد أبناء البلد إلى الخاطبة يسألها عن عروس .
وتأتى له بعروس وتعجبه . ليلة الدخلة يجد نفسه أمام عروس أخرى .
لقد خدعته الخاطبة وعندما يحاول الهرب ، يجد أن أهل العروس الذين
يطلقون الأعبرة النارية « فى الفاضي » يهددونه بإطلاقها فى المليون . . .
ولكن هذا هو الذى يحدث كثيراً جداً بين أبناء المدن . فالواحد
منهم يخطف فتاة . ليلة الدخلة يجد نفس الفتاة . ويهرب معها فى شهر
العسل . وبعد ذلك يكتشف كل يوم أنها فتاة أخرى ...

وكانه تزوج أخت العروس ، وكأنها تزوجت أحد المدعوين ...
فأيام الخطبة هى عمل فيش وتشبيه للعروسين ، وشهر العسل هو
محاولة « مضاهاة » بصحات العروسين الذين أصبحوا زوجين ...
ويحدث كثيراً جداً أن يكتشف العروسان تزويراً فى المستندات
الرسمية !!!

أعرف مهندساً تخصص فى الخرسانة المسلحة . وتقدم المهندس
لخطبة فتاة وتزوجها . وكان حديثه كله طبعاً عن الزلزل والأسمنت والشكاير
والحديد والصلب . وكانت أطول مناقشاته حول الخوازيق التى يجب أن
يدقها فى الأرض قبل بناء العمارة . وكانت له فلسفة خاصة فهو يقول

لها : إن العمارات العالية تحبها خوازيق عالية . وكلما كبر الخازوق ، ارتفعت العمارة . وهو يقصد بلغتنا نحن : أنه ليس أحسن من الفقر والتواضع ، وأن العمارات الصغيرة لها خوازيق صغيرة ... ومتاعب قليلة ... وكان الكلام يتساقط من فمه كالديش . وينزل على رأس الفتاة كالطوب . ولكنها كانت سعيدة به جداً . كانت ترى أن كلامه كالخوازيق . ولكنها الخوازيق التي لا بد منها لعمارة الحب . وقصر السعادة ، وناطحة السحاب ... وكانت تنزل مع الخوازيق تحت الأرض . وكانت تنشلق مع العمال فوق السقايل ، وتنشعبط على أنابيب المياه ، وتصرخ عندما ينقل الباب على إصبعها ... كل هذا وهي سارحة فيه ومعه ... وكانت ترى أن الزلط والطوب أروع وأجمل من اللب والحمص والسوداني مع الشبان الصغار الذين عرفهم قبل الزواج . ولكنها أحست بالملل . ملل الاستماع ملل الصمت . لقد شعرت أنها التلميذة الوحيدة في كلية الهندسة قسم العمارة فرع الخرسانة ... وأن زوجها هذا يحاضر ليلاً ونهاراً . وليست هناك مقررات . وليست هناك امتحانات للترم الأول أو الثاني ... ولا توجد إجازة لنصف السنة ولا آخر السنة ... والمحاضرات تبدأ بغير جرس ، وتنتهى بغير جرس ... وفي استطاعة التلميذة أن تنام وأن تأكل ويظل الأستاذ يتكلم بلا توقف ... وأحسن هو الآخر بالملل . فقد كان يعرف قبلها فتاة . فلم تستطع هذه الفتاة أن تصبر طويلاً على الحياة بين الطوب والزلط . وكانت تهمة

بأنه مأمور ضرائب يحلم بأن يكون وكيل نيابة إدارية في مصلحة المباني!!
وتركته هذه الفتاة . وعندما عرف زوجته . ظن أنه يستطيع أن يدخل
قلبها إذا بدا أمامها كبيراً عالماً جليلاً . مهندساً بارعاً . يحول الأرض
الحراب إلى عمارات ، يحول الحجارة إلى سلام ، والزلط إلى حوائط
ناعمة ... وقد أقام الكثير من العمارات ولكنه نسي زوجته في البدروم
مع البوابين .

ولم تعرف زوجته أنه كان يخفى خجله . كان عندما يتحدث إليها
لا ينظر إلى وجهها . يخاف من عينيها . فهو رجل بلا تجارب وكان
كثير السرحان . وكان السرحان غشاء يتستر وراءه حتى لا ترى الزوجة
حيرته ولبخته .

والدنيا كلها عنده عبارة عن فلل وبيوت وعمارات ...

وحياتهما عبارة عن بيت له ثلاثة طوابق . الطابق الأول هو الجنس
والثاني هو الحب والثالث هو الصداقة ...

وهناك نساء كالعمارات ، لها باب واحد ...

ونساء لها أكثر من باب ...

ونساء لها واجهة جميلة فقط ...

ونساء لها مداخل من الرخام الأبيض الملون ...

ولم يعرف كيف يتراجع ... لم يعرف كيف يرتدى ملابس الطلبة ،
ويرمى روب الأستاذ ...

وهي الأخرى لم تحاول أن تراجع عن الاستماع إليه والسرحان في شيء آخر .

وأصبح كل شيء مملا . صمتها ممل . وكلامه ممل !!!

ونحن عندما نتزوج فلاننا نحاول أن نهرب من الصمت الممل . وعندما نفر من الزواج نحاول أن نهرب من الكلام الممل ...
وأصبحت حياتهما مملا ...

واكتشف كل منهما أن الآخر قد زور في الأقوال والأفعال والشهود ...

ولم يصارح أحدهما الآخر ...

فقد قام « الخجل » بدور الخاطبة التي زورت العروسين ...

واتفق الاثنان على الانفصال ... ليبدأ كل منهما حياته من جديد ...
ولكن مع إنسان آخر ... حياة الأكواخ والكباين والحيام ... حياة
بلا خوازيق !

مذهب الكدهوية !

اتفق رأى الأطباء على أننى يجب « أن أشوف لى حل » . . أنا الذى
يجب أن أبحث عن الحل ... فقد حاروا . .

ليس الكبد هو السبب ... ولا الأمعاء الغليظة ولا المعدة ... ولا
القلب ... وقد تكون الأسباب وراثية ... وقد تكون الأسباب عصبية ...

أما أنها أسباب وراثية فهذا مستحيل فقد كان والدى ينام ويستغرق
فى النوم فى أى وقت يريد وكنت أنا وإخوتى نتبارى فى رؤية والدى
وهو ينتقل من اليقظة إلى النوم إلى أعماق النوم ... فكان يطلب منا أن
نعد من واحد إلى خمسة ... وقبل أن نصل إلى أربعة يكون قد نام .
فليست الوراثة أبداً . وقد صدق المثل القائل : يخلق من صهر النائم
ساهر . .

وليست الأعصاب ... فأنا متنبه جداً . والسبب هو الطبع أو هى
المهموم أو هى المخاوف أو هى عشرات من فناجين البن طول النهار
وطول الليل أو هو انتظار النوم الذى لا يجىء !

ولكن الأعصاب كالحديد مشدودة طول الوقت ... وألاحظ أننى
أحتمل الكثير من المواقف . ولا أقول بالابتسام ولكن بالصمت أو بمحاولة
الدوران حولها . يعنى الأعصاب لا بأس بها ...

إذن سبب أرقى وسهرى ليس الوراثة ولا الأعصاب ... ليست وراثتى
ولا طبيعيتى ... ويبدو أن مشكلتى مع النوم هى مشكلة أدبية ... مشكلة
لغوية ...

فأنا أعامل النوم باعتباره مذكراً ... باعتباره رجلاً مثلى ... رجلاً
يحفظ كلمته ولا يخلف وعده فهو يعلم أننى على موعد كل ليلة . ومع
ذلك لا يجىء ... أو يجىء متأخراً عن مواعده ساعات .. وهذا يضايقنى
والضيق يجعلنى عصبياً . وعندما أكون عصبياً لا أنام ... فيصبح جسمى
كله فى حالة استعداد ... فى حالة طوارئ ... الأنوار الحمراء فى عيني
والصفارات فى أذنى ... والأجراس فى صدرى .

ومنظرى ... كمنظرييت احتشد أمامه الناس وكلهم يصرخون ...
وأمامهم وقفت سيارات المطافئ والإسعاف والنجدة والآداب ... إن هذا
المنظر يخيف أى إنسان أى زائر لك حتى لو كان هذا الزائر هو أعز
صديق لك . حتى لو كان هو النوم !

ويجب أن أغير علاقتى اللغوية بالنوم .

يجب أن أعتبر النوم « مؤثماً » ...

أعتبره فتاة ... فتاة جميلة أوقبيحة ... وإنما هى فتاة والسلام ...
تجىء كل ليلة وتعطينى شيئاً منوماً ... فى العضل ... فى الوريد ...
فى الضرس ... فى العين ... لا أعرف أين ... ولكنه شئ من نوع
غريب . وليس مهماً أن هذه الفتاة قبيحة الشكل ... فالمرأة هى المرأة ..
سواء أكانت م . م أى مارى منيب أو م . م أى مارلين مونرو . ولذلك فهمى

لا تهتم بالمواعيد ... لأنها تتصور دائماً أن الرجل يجب أن ينتظرها ...
يجب أن يتوقع مجيئها بين لحظة وأخرى ...

ولكن شعورى بأن النوم امرأة قبيحة ومع ذلك لا تحفظ مواعيدها
يلهب أعصابى ويخلق « تماساً » فى أعصاب العين والأذن والأنف ...
فأظل طول الليل فى حالة احتراق وتدخين ... ومعنى ذلك أننى لا أنام ...
والحل الوحيد هو أن أتصور أن النوم فتاة جميلة وأننى ميت فى
هواها ... وأننى لا حياة لى بغيرها ... وأن كل جسمى يجب أن يحتفل
بها ... يجب أن أتلمس لأننى طريقاً إلى عطورها . ولأذنى سيلاً إلى
أنغامها ... ويبقى جسمى ممدداً على الفرش كأننى تربيزة سفرة عليها
الطعام ... والطعام فى انتظار ست الحسن والجمال ... سنجىء . متأخرة
عن مواعيدها . ولا مانع فهذا شرف عظيم ... المهم أن تجىء ...
ولا يجب أبداً عندما تجىء ست الحسن أن أناقشها الحساب ... لماذا
تأخرت ... ومن الذى عاكسها فى الطريق ... ومن الذى كانت تكلمه
فى التليفون ... ولا يجب أن أسألها إن كانت ما تزال تحبى ... أبداً إننى
فى معركة معها ... مع الغيرة مع الحيرة ... ولكن هذه المعركة يجب أن
تنهى قبل أن تبدأ . . يجب أن أرفع علماً أبيض فى نهايتها . . فأحسن
وسيلة للانتصار فى معركة المرأة هى الاستسلام لها ... هى الانسحاب
أمامها ... هى الهرب من مواجهتها ... إذا هربت منها ، هربت وراءك .
وتركت أهلها وأحب الناس إليها من أجلك ...

ومشكلتى مع المرأة التى هى النوم أو المرأة عموماً ... أننى أحاول

أن أفهم تصرفاتها أولاً وثانياً وثالثاً وبعد ذلك أتصرف كما تريد هي ...
ولكن عيب هذا النوع من التفكير أنه لا ينجح إلا مع الرجال ... ولكن
المرأة لا ينجح معها أى تفكير ، أية محاولة لكى تكون عاقلاً ، فلا
فكر ولا عقل ولا منطق ... وإنما « كده هو » و « كده هو » معناها
أنك تتصرف أولاً بأول ... حسب الموقف .. بلا خطة ولا برنامج ...
و « الكدهوية » هو أقدم مذهب عرفه الإنسان منذ نزل من السماء إلى
الأرض .. وقد كانت سياسة والدنا آدم ، تمشى على قواعد « الكدهوية » .
وإذا حواء أكلت من التفاحة لم يعاتبها ... وإذا استمعت إلى الأفعى
لم يعاتبها ... وإذا قصرت لم يؤاخذها ... فلم تقع بينهما معارك ... ولم
يمسك حجراً أو شجرة ويحطم رأسها ... ولذلك عاشت البشرية واستمرت
لأنها طبقت « الكدهوية » تطبيقاً كاملاً ...

ولذلك لا أتوقع أن أناام لا اليوم ولا غداً ما دمت غير مؤمن بقواعد
الكدهوية ... فى الحياة عموماً ومع المرأة خصوصاً ... ومع النوم بالذات .
ولكنى اهتديت إلى حل أحسن .

فقد لاحظت أننى أثناء ابتداء من منتصف الليل ... بشرط أن
أكون خارج البيت فإذا وصلت إلى البيت ... طار النوم ... ويبدوا أن
النوم طائر حريضيقي بالحبس والقيود ... وقد حاولت أن أغرى هذا
الطائر بأن أفتح له النوافذ ... وأن ألقى له بالغطاء من فوق ... لعله
يبقى طول الليل ساهراً فوق رأسى ... ولم أفعل ... وأذكر أننى فى إحدى
المرات وقفت بسيارتي أمام البيت ... فاستغرقت فى النوم ... فتطوع

بعض الجيران وأيقظوني ... فقد ظنوا أنني مريض ... أو أنني في حالة إغماء . وقد نصحتني بعض الأصدقاء أن أنصب خيمة أمام البيت وأنام فيها ... وقد رفضت هذه الفكرة ... لأن الخيمة إذا أقفلت جوانبها فستتحول إلى بيت ... ويهرب النوم مني مرة أخرى ...

والحل الوحيد هو أن أعمل كما يعملون في أمريكا ... فقد رأيت في أمريكا سيارات ، كثيرة مكتوب عليها (عريس وعروس) ... أو « بداية شهر العسل » .. أو « اليوم الأخير من الشهر الحلو » .. وكان الناس كلما رأوا أصحاب هذه السيارات ألقوا عليهم بالورود وتمنوا لهم السعادة .. ولذلك سأقف بسيارتي أمام باب البيت وأكتب عليها « نائم » ... أو « دعوني أنام » أو « الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها » ... أو الفتنة نائمة فقط ولا داعي لشتيمة الناس ... والمشكلة هي أن الفكرة جديدة وسيُنظر إليها الناس في دهشة وسيلتفون حولي ... وستقام حفلات العزاء وكل واحد منهم يأخذ بمخاطر الآخر ويطالبه بالصبر والسلوان ... فقد كنت رجلاً طيباً والأعمار بيد الله ... لقد مات عقل الأستاذ !

فما هو الحل ؟

إن الجواب على هذا السؤال هو ما أناقشه كل ليلة !

عودة الصوت !

قام من النوم وقال : آه

وقالها مرة أخرى . وانتفض جالساً ليقولها مرة ثالثة . . . ويضرب حلقه بيده . . . ويدق صدره وظهره . ويشرب كوباً من الماء . وينطلق إلى الحمام ويسعل بصوت عال . . ولكنه لا يسمع شيئاً . لقد ذهب صوته . إن الحبال التي كان الصوت يتسلقها قد انقطعت . . . إن صوته في بئر . كأن حنجرتة قد هبطت إلى معدته . . إنها تتكلم هناك ، فلها صوت يجيء على هيئة مفص .

أنه حزين . أن الذين يقولون له أنه ابتلع حنجرتة سهواً يؤلمونه جداً . أنه لم يعد يضحك . بل لا يدرى كيف يضحك . يمد يده إلى التليفون ليتكلم . . . مع من ؟ وكيف ؟ فكل ما يخرج من فمه هواء . . . هواء يخرج من الخلق كأنه هواء الحماسين فيه تراب ورمل . . . ويرتدى ملايسه وتعترض أمه طريقه . . . فيتظاهر بأن في فمه ماء . . . ولا يتطق فتقول له : مالك أسنانك تاني . . . مش قلنا بلاش سجابر . . . وبلاش سهر . . . أبوك كان كده . . . أخرتك زيه !

ولكنه لا ينطق . لقد ضاع أمله . أنه كان يحلم بأن يكون مديعاً . وأن يقول هنا القاهرة . . . بصورة غنائية . . . لقد سمعنا منه هنا القاهرة ،

ألف المرات ... وسمعنا منه كيف يقدم أم كلثوم لخضرات السيدات
والسادة وكيف يصف فستانها وحليها ويصف صوتها وشعر أحمد رامى ...
سمعنا هذا مئات المرات ... وتمينا له النجاح حتى يحمل السادة والسيدات
بعض ما نعانیه معه من عذاب ... كل شيء ضاع ...

وحمل حقيبة في يده وتذكرة الطائرة وسافر إلى ألمانيا ...

ولا شيء يجعل الإنسان يشعر بأن الصوت عضو جميل ، إلا هذا
الصديق فصوته يشبه الضوضاء العجيبة الموجودة على أرصفة محطات
السكك الحديدية ... فأنت عندما تجلس إلى جواره يذكرك ببائع السميط
وبائع الصحف ، وصوت الكمسارى ، وهو يتشاجر مع أحد المسافرين
دون تذكرة ..

والصوت عضو جميل . . . كالفم والعين والأنف والساق . . . ونحن
في اللغة العامية نقول «الحس» ومعناها الصوت . والحس معناه الإحساس ،
وهذا معنى جميل . فالصوت هو كل إحساسنا ، كل ما فينا من عقل
وفهم وقدرة على التعبير . والفلاسفة كانوا يقولون أن الإنسان حيوان ناطق ،
أى حيوان له حس ... له إحساس ، له ... صوت ... له قدرة على أن
يجعل أفكاره مسموعة .. فالصوت عضو جميل ، فيه جمال العين ، ودفء
الشفاه ، وسحر الساق ...

أنه نعمة ، أنه هبة ، أنه رأس مال . . . اسألوا عبد الوهاب وأم

كلثوم وعبد الحليم !

وسحر المرأة في صوتها . وأنا أعتقد أن أجمل صوت في الدنيا هو

صوت الممثلة الإيطالية اليانوره روسي دراجو... هذا رأي ورأي هذا الصديق الضائع الصوت والصيت... أن الحبال الصوتية عنده تتحول إلى كرباج ، إن صوته يتحول إلى سوط يوجع ويؤلم أكثر الناس حباً له ، ويوجع أمه التي تحبه أكثر من أى إنسان فى الدنيا . ولا أعرف اسم الشاعر الذى كان يقول : لا توجد امرأة واحدة لا أستطيع أن أنتصر عليها بشرط ألا تفتح فيها . . . لأنها إذا تكلمت فقد استخدمت أقوى أسلحة الشيطان !

وكان صديقنا هذا يغنى أيضاً ويقفل الراديو عندما يستمع إلى عبد الحليم أو نجاة ويقول : حظوظ !

وكانت تمشى وراءه جبال من لعناتنا وأنهار من دموعنا . . .

وكان فى نيتي أن أدعو له وأصلى من أجله... لولا الخطاب الذى بعث به من ألمانيا... إننى لا أصدق ما أقرأ... الخط على الآلة الكاتبة... التوقيع للدكتور «إفرد»... لقد أعطيت الخطاب لهذا الصديق وذلك... ولا أحد يصدق الخطاب أو يصدق الطبيب الذى يقول : أن صوته قد تخاذل وإنهار لأنه قليل الكلام . وأنه سيعبد إليه صوته !

إذن... ستكون حباله الصوتية . مشانق لكل الأصدقاء !

كتر لا يفنى

فى عيني صور متتابعة لأناس راضين ضاحكين . أحدهم يجلس على الأرض فى شارع فؤاد يمزق إطارات السيارات ويصنع منها نعالا للأحذية القديمة . وفى استطاعتك أن تمر أمامه وأن تبسم له . أو تحييه . انظر إلى وجهه إيه يمتلى* بالدم والنور ويضحك ويحييك . ولا تختنى الابتسامة بسرعة . وإنما تظل عالقة بوجهه مضيئة كعلامات المرور . . .

من أين له هذا الرضى ؟ هذه القناعة ؟ هذه السعادة ؟

إنه يجلس على الأرض . على قطعة من الحجر ... وظهره للحائط . ورجلاه ممدودتان ...

أهو يغترف من ذلك الكثر الذى يسمونه القناعة . والقناعة كثر لا يفنى . أهو الصبر على ما عنده . وليس عنده شىء . . . أهو الإيمان ؟ الإيمان بماذا ؟ أهو طبيعة الوجه أن تمتلى* بالنور والسعادة ؟

وسيدة أخرى تحمل على رأسها «مشنة» بالقول السودانى . وجهها لامع وساقاها مغسولتان دائماً . وهى إذا سارت فلأنها تتثنى وتوزع ابتسامتها أكثر مما توزع بضاعتها ولا تكف عن الضحك أبداً ولا تبيع أبداً . ظلت أرقبها مسافة طويلة . إن أحداً لا يشتري منها . ومع ذلك فهى لا تبخل على أحد بابتسامة أو بتحية أو بإغراء .. ولكنها تضحك دائماً وتمد يدها

إلى المشنة نأكل مما تحمل أيضاً . أنها تنوب عن الزبائن في تذوق هذا
السوداني الساخن - كما تسميه ..

نفس الوجه . نفس الابتسامة .. والينبوع الحالد . يتفجر من وجهها
وعينيها وصوتها ومشيتها ...

أهو الصبر الذي هو مفتاح الفرج ؟ .

أهي طبيعتنا المصرية ؟ ولكن هل هناك شيء اسمه « طبيعة » مصرية
وطبيعة إنجليزية أو فرنسية ... ؟ أم أنها طبيعة واحدة لكل الناس ؟ أهى
صفات شخصية ؟ ولكن كيف تكون شخصية ويتصف بها معظم الناس ؟

ورجل ثالث جاء ضيفاً علينا نحن رواد « البن البرازيلي » ... رجل
بجلباب وجاكته يبيع كرافتات صنعت من الجلد، أنها جميعاً تشبه كرافتة
توفيق الحكيم ... غير قابلة للكسر ولا الغسل وينادى عليها بأسلوب
خاص ويقول : فكرة جميلة جداً ... الفكرة دى جميلة جداً ... جداً .

ويروح ويحىء في شارع سليمان باشا بين دور السينما ويعترض
المتفرجين ويضحك الناس عندما يرونه أو عندما يفاجأون بأسلوبه
الخاص في النداء على الكرافتات ويقتنعون معه بأن الفكرة جميلة جداً ..
وأنها فكرة فقط . ولكن يداً واحدة لا تمتد إلى شراء هذه الكرافتات ولم
أر أحداً غيرى اشترى منه كرافتة واحدة .. ولكن الرجل صاحب الجللاب
والجاكتة لا يكف عن الابتسام ولا عن الفكرة الجميلة جداً ... ويظل
يروح ويحىء كأنه كرافتة . وكأنه معلق في شائعة . ولا تمتد إليه يد أو
حتى يكلمه إنسان ... ويضحك !

هذا الابتسام أو هذا الضحك أو هذه القناعة ما معناها ؟ هل معناها أن هؤلاء الناس نفوسهم لم تصدأ . وأن جذوة حياتهم لم تخدم ؟ ولماذا ؟ هل هي روح المقاومة لفسوة الحياة ؟ أهو الإيمان الذى يمدهم بأسلحة وعتاد لا ينفد ؟ أهو الانتظار السعيد ليوم الفرج ؟ أهو العالم الصغير المحدود الذى يتحركون فيه ، والذى يحد شمالاً ببائع البرتقال وجنوباً ببائع ورق اليانصيب وشرقاً بمحطة الترام . . وغرباً بالحائط . . . وهل إذا كان عالمنا محدوداً كانت متاعبنا أقل وهمومنا أخف . . .

هل هذا العالم المحدود هو الذى يجعل بائع النجل مثلاً يضع ساقاً على ساق ويقول : أنا سلطان زمانى . . .

أما حدود هذه السلطنة فهي جانب من جانب من شارع صغير أو حارة مسدودة .

أهو نفس العالم الذى صورته « لأكسنس » الذى فاز بجائزة نوبل العام الماضى فى قصة « سالكا فالكا » . فهو فى هذه القصة يقدم لنا أناساً يعيشون فى جزيرة تغطيها الثلوج وتكتسحها العواصف أو الثلوج العاصفة . . . يعيشون فى عزلة جليدية عن العالم كله . . . ويتحكم فيهم صاحب الزورق أو بائع السمك . . . وعندما تلعب الحمر الرديئة برأس صاحب الزورق يقف على منضدة ويعلن أنه سيد البحار . وحاكم الجزيرة وأنه الذى يمسك الجوع عن كل الناس ، ولولاة لانعدمت الإنسانية كلها . . . إنهم يعيشون فى عالم محدود جداً وهم راضون وقانعون وبعضهم يحسد البعض . وفيهم متدينون . لأنهم لا يدرون ماذا يصنعون أمام الجليد

والعواصف والبحر والخوف والفقر .. لا شيء إلا الصلاة . وفيهم ملحدون .
لأنهم لا يخافون أحداً أو شيئاً . لأنهم يملكون وسائل أحياء الناس . ولذلك
فهم حكام مشيدون أو آلهة . .

أنه العالم المحدود الذي يملأ قلوب الناس بالسعادة ...

وعندما ذهب « جيلفر » إلى بلاد الأقزام قابله الملك والوزراء وسألوه :
هل رأيت أروع من بلادنا ؟ هل سمعت عن أناس أقوى وأعظم منا ؟
هل شاهدت هندسة وعمارة وفناً أجمل مما في بلادنا ؟
وضحك الملك وتمايل الوزراء . فقد سكت جيلفر . وسكوته ما معناه ؟
ليس معناه أن الملك قد أقنعه بشيء .

والملك سعيد وحاشيته ووزرائه والشعب سعيد في هذه الدولة المحدودة
التي يقطعها جيلفر طولا وعرضاً في بضع دقائق . . .

إنه العالم المحدود المريح . . إنها القناعة التي تشبه ذباب « تسي تسي »
الذي إذا لدغ إنساناً جعله ينام وينام إلى الأبد ...

إنني لا أحسد أحداً من هؤلاء على الرصيد الذي لا ينفد من الابتسام
والقناعة . ولكن أتمنى القليل مما لديهم دون أن أجلس وظهرى إلى الحائط
أو أبيع الفكرة الجميلة جداً !

سبع صنایع ..

هو كل هؤلاء ... ليسانسيه في الحقوق ... ليسانسيه في الآداب -
مرتین ... مرة في التاريخ ومرة في اللغة الفرنسية ... ومصارع فاز بعدد
من البطولات في حمل الأثقال ... وفاز بالمرتبة الأولى في جمال الأجسام .
وموسيقار وشاعر وطالب ماجستير يدرس موضوعاً لم يتناوله أحد قبله وهو -
الموسيقى عند قدماء المصريين ... وموظف في الدرجة الثالثة وفاشل في
حبه الأول والأخير !

واسمه : ی . . من الأسكندرية وله قصة ..

أولها أن يعقوب كان تلميذاً ضعيفاً ... وكانت أمه تخاف عليه أن
يسقط في الطريق فيموت ... فكانت تصونه في البيت . تفقل عليه
الباب حتى لا يصدمه الهواء . وتسارع إلى النافذة فتقفلهما في وجه الشمس .
وازداد الفتى ضعفاً ... وطلبت إليه أمه أن يمارس أى نشاط يتفق مع
هذا الهزال ... وبدأ يحرك أصابعه على الكمان ... وبدأت حركة غير
عادية تدب في جسمه كله ... كأن عملاقاً هائلاً قد تربع في أحشائه .
فإذا هو يتنفض ويدفع فيضاً من الحياة في ذراعيه وفي صدره وفي
ظهره ... أو كأن مجموعة هائلة من الأفاعى قد هربت من قفصه الصدري
فتسربت إلى ذراعيه والتفت عليها . وإلى رجليه ... لقد قامت القيامة في

جسم يعقوب واختفى الشاب المريض ... وصحت الأفاعى على صوت الكمان فقامت تتلوى ... وراحت تضرب وتصارع وتحمل ١٦٠ كيلو وهو ما يزال فى السابعة عشرة من عمره ... وكان التصفيق حاداً وكانت بطولة ... وإذا هو يسبح فى الماء بطلا ... وعند حافة الشاطئ يلتقى بالعازف العالمى « جاك » أحد أعضاء فرقة روبسون المطرب المعروف وإذا هو ينقذه من الهلاك ... ويتطلع جاك إلى أصابع منقذه ويدمى كيف أن هذا الوحش له هذه الأنامل الموسيقية ... ويكتشف أنه لم يخطئ ... فهذا الشاب موسيقار ... ويدعوه للعمل معه فى لندن ويفضل ... البقاء فى مصر لينال ليسانس الحقوق وهو فى التاسعة عشرة من عمره ويصبح بطلاً للأسكندرية ... ولمصر، ويصبح ملكاً فى لحمال الأجسام ... وله صور وقصص ومعجبون ومعجبات وتقع عينه على فتاة ... أو تقع عين فتاة عليه ..

وكانت نظرتة قوية كعضلاته ... وأعجب بالفتاة وأعجبت به الفتاة . أعجبت بالحديد اللين ... ولكن هذه القوى الهائلة مهما كانت فهى خرساء أمام فتاة رقيقة تخرجت فى المدارس الفرنسية ... فلا بد أن تكون هناك لغة أخرى ... فكان ليسانس الآداب فى التاريخ ... وكان الحديث عن غرام الأبطال والملوك والأمراء ... وروميو وجولييت . وأنطونيو وكليوباتره وقيس وليلى ، وكثير وعزة ... ودوقة وندرسور ... وانتهى الكلام ...

ولكن الحب طفل صغير ينام ويصحو على الحوادث .. إنه

ينام ويمدد رجله وذراعيه في قلوبين اثنين في وقت واحد ... وصحا
الحب يبحث عن لعبة أخرى يلهو بها ... وكانت اللعبة هي اللبسان
الثانية في اللغة الفرنسية ...

والتقيا معاً في لغة واحدة ... وكان الحديث عن غراميات الأدب
الفرنسي وعن التضحية بالدين والوطن والمال من أجل الحب ... ولكن هذا
الكلام كانت قد سمعته من قبل باللغة العربية ... كان كلاماً معاداً ..
وتحركت أصابعه النحيلة مرة أخرى ... أنها كأصابع البيانو وكتب
مقطوعات موسيقية وعشرات تردد في الإذاعات العربية ... ثم
كانت مقابلة للسائح العالمي « فتز باتريك » الذي طلب منه أن يؤلف
له الموسيقى التصويرية لفيلم سياحي عن مصر .. وقد عرض الفيلم في
مصر ... وعندما انتهى ... من وضع موسيقى هذا الفيلم ... مد
فتز باتريك أصابعه في جيبه وأخرج دفتر الشيكات وسأله : كم ألفاً تريد؟
ورفض ... أن يتقاضى أى مبلغ من المال لأنه أدى واجباً وطنياً .
ودهش السائح الأمريكى لهذا التفكير الغريب . . . ومد يده في جيبه
مرة أخرى وأخرج شيئاً ونادى الخادم وقال له : كوية ماء من فضلك ...
فلما حضر الخادم أعطاه السائح الأمريكى ورقتين فئة كل واحدة منهما
مائة دولار ! ... وكان ذلك بقشيشاً ... أنى ... لا يخفى اليوم أسفه
ولكنه عندما شاهد الفيلم ورأى اسمه يملأ الشاشة ... وقرأ أنه مؤلف
الموسيقى التصويرية أحس أن في جيبه مليوناً من الدولارات .
وذهب وهذه الملايين في جيبه إلى فتاته ... إنه يرى فيها الجمال

الكامل . أنه يرى أن الطبيعة قد قالت كلمتها فيها ... بل أدلت بكل أقوالها وبصمت بكل أصابعها، إنه كان ينظر إلى صدرها وهو يعلو ويهبط . فكان يصاب بدوار البحر ... لقد كان البحر الأبيض يخاف منه ، ولكنه أمام هذا البحر الأسمر ، يخاف الاقتراب من الشاطئ .

وتعلقت عينا الفتاة بأحد المعجبين به واختفت معه في بيت الزوجية ... وبقي هو وحده يحمل الكتاب بعد الكتاب في يده ويحتاج الشواطئ والنوادي لعل أحداً يقتنع بأنه فنان وليس فيلا أو ضرفيلا ... ولكن أحداً لا ينظر إلى أظافره اللامعة أو أصابعه المسحوبة الطويلة ... أن الناس تنزل على إرادة الأغلبية في جسمه ... والأغلبية تقول : أنه مصارع ... والأقلية تقول : أنه فنان ...

وكان لابد أن ينبت الشعر في وادي الفشل العاطفي ... والحب يشبه قوس قزح لا يظهر إلا على سماء ملبدة بالسحب ... فتوالت القصائد عن الندى والفجر والسهر والبكاء والبلبل الذي يسكن جبلا اسمه ... ولكن الفتاة مشغولة بصراخ الأطفال واللين والبزازة ... والطفل يبيكي بعضه على بعض ... ويمسح دموعه بثلاثة لسانسيهات .

والقصة لم تنته ... أنه يعمل الآن في إحدى الإدارات التي يستغل فيها كل مواهبه الأدبية والفنية والجسمية والعاطفية ... أنه يعمل في الحجر الصحي !

واستراح الناس

لا يعرف أحد من أين جاء هذا الرجل العجوز . ولا من أين جاءت هذه الفتاة التي تقسم معه ... إلى أن كان أمس وأمس فقط ...

كل ما نعرفه نحن أبناء هذه المنطقة أن هذا الرجل العجوز يقيم مع هذه الفتاة منذ سنين . لم يقف في نافذة ولا في باب ... بل لم يرهما أحد معاً في البيت أو في الشارع ... لم يحاول أحد أن يسأل الرجل العجوز فإنه جاد طيب ... ولم يحاول أحد أن يسأل هذه الفتاة فلإنها مهذبة رقيقة ... ورقتها لا تشجع أحداً على أن يقترب منها أو يسألها ... أنها تقيم بينها وبين الناس ستائر تحول بينهم وبينها ... أنها ليست ستائر سمكية أو قوية ... ولكنها ستائر ... ولا يحاول أحد من الناس أن يخترق هذه الحجب الرقيقة .

وكان الناس ينظرون إلى نافذتها وقد غطتها الستائر . ويقولون إن هذه الفتاة تعيش في السحاب ... وكان الناس إذا رضوا عنها قالوا : أنها ملاك يحرسه رجل مخلص ... وإذا غضبوا قالوا : هذه هي الأميرة وهذا هو الشيخوخة وهذه هي الشباب .

ولكن أحداً لم يستطع أن يتجاوز حد القول إلى الطرق على الباب والسؤال عن صحة الفتاة ... أن أحداً لا يعلم أنها مريضة ولا أحد يعلم

أنها صحيحة ... أنها بين المرض والصحة ... بين أن تكون ابنة هذا الرجل وبين أن تكون أخته ... ولكن أين أمها وأين أبوها ... بل أين أمه هو وأين أبوه هو ...

وكان الناس يجتمعون على سطوح البيوت يسمعون أنباء هذه الفتاة وهذا العجوز ... ففي ساعة محددة من الليل تظهر الفتاة بالقرب من النافذة وتتطلع إلى الجالسين بالقرب من النافذة وتتطلع إلى الجالسين فوق الأسطح وتحببهم في أدب ثم تقفل النافذة وتضيء الأنوار وتجلس إلى البيانو .. ويقال أن العجوز كان يجلس إلى جوارها ... فقد عرف الناس ذلك عندما فتح الهواء الشباك مرة . منذ سبعة شهور .

وتظل الفتاة تلعب بأصابعها على البيانو ساعة أو ساعتين ... وينطفئ النور . وتدخل الفتاة غرفتها وتضيء مصباحها ... ويقال أن العجوز يذهب إلى حجرتها ويضيء المصباح بعض الوقت ... وبعد ساعة يحتوى البيت كله ظلام .

هذا يحدث كل يوم ... ومنذ سنوات وقد تعب أهل هذا الحى الذى أعيش فيه من هذه القصة الغريبة ... أو من هذا اللغز وراحوا يفترضون فروضاً بعيدة وقريبة ... وكانوا يفترضون قصصاً وهمية يناقشونها نقاشاً طويلاً ولا يخرجون بنتيجة .

فهناك من يقول أنه جاسوس ... وأنه يقرأ كل الصحف التى تصدر فى مصر بكل اللغات ... وأنه لا يبعد أن يكون صهيونياً وأن يكون خائناً لمصر ...

وبعد ذلك يعتذر أصحاب هذا الرأي عن هذا الظن السيئ ... أنهم يقسون على هذا الرجل وهذه الفتاة . وسبب ذلك أنهم تعبوا من محاولة الفهم . تعبوا من التخمين . فأنهالوا على العجوز وعلى الفتاة ضرباً بالإشاعات والتفسيرات الغريبة .

وهناك من يقول أن هذا الرجل يعمل على تهريب الحشيش والأفيون . . وأن هذه حيلة قد اتخذها حتى لا يلفت إليه الأنظار . . ولكن ما هذه الحيلة ؟

لا حيلة هناك . . وإنما الرجل يسكن هادئاً في منطقة بولاق التي لا هدوء فيها ولا راحة عين ولا أذن ولا أنف ولا حنجرة ولا قلب . . لا راحة في هذه المنطقة ... فلماذا لا يسكن في الزمالك إذا كان هذا رقيقاً . دارت مناقشات فوق سطوح البيوت هل هذه ابنته ؟ هل هذه أخته ؟ هل هي عشيقته ؟

لا جواب على هذه الأسئلة كلها وتعلقت الأسئلة حول هذا البيت كالأعلام السوداء ... تحجب كل شيء عن العيون والعقول أيضاً ... وتعب الناس فوق سطوح البيوت وتحت السطوح وفي حجرات الطعام والنوم ولا بد أنهم تعبوا في مكاتهم ...

إلى أن كان أمس عند منتصف الليل فقد انطلق صوت ... إنه لم يكن صراخاً وإنما كان صوت الليل وقد تمزق قطعة أو قطعتين ... وفتحت النافذة ... فلم أجد شيئاً ولم أسمع شيئاً .

وفي الصباح سار نعش صغير ووراءه كل أهل الحي . . أن واحداً

منهم لا يعرف من الفتاة التي ماتت ... ولا يعرف من هذا العجوز الذي يبكي وراءها . . . لقد رأى الناس عجوزاً يبكي فبكوا . رأوا نعشاً يتحرك فساروا ... رأوا يداً ترتجف فمدوا أيديهم إليها وقالوا : البقية في حياتك ... كلنا لها ... الأعمار بيد الله .

وعندما عادوا من هذه الجنازة عرفوا أن التي صرخت في الليل ، لم تكن امرأة وإنما كان العجوز هو الذي ظل يصرخ ساعة بعد ساعة حتى اجتمع حوله كل الناس . . أما العجوز فليس أباهـا ولا أخاهـا ولا عشيقها ... إنه زوجها ... لقد كان هذا الرجل طبيباً وكانت هذه مريضة في مستشفى فأحبها وتزوجها . وعرف أنها يتيمة . وعرفت هي أنه يتيم الأب والأم والأخ والأصدقاء ... وعاش هذا الطبيب يعالجها ... لقد جعل بيته مستشفى لها ... ولم تدر هذه الفتاة ماذا تفعل من أجله . إن كل ما تملكه هي أن تعزف على البيانو ... أن أقوى شيء في جسمها كله هو أصابعها ... وحركت أصابعها ... ساعات وساعات ... لأنها تسبح له بهذه الأصابع وتدعو له وتشكره وتقبل يديه ورجليه بأصابعها وموسيقاها .. ورضى زوجها وطبيبها وحارسها .. ولكنه كان يعلم أنه لا أمل في الشفاء .. إنه كان يعيش مع امرأة ميتة .. كان يرى حبه يموت في عينيها وفي شفيتها .. يموت بين يديه فصرخ وبكى ودفنها .. ولم يسترح .. واستراح الناس ! .

بقايا كل شيء !

طفاية سجائر . . هذا كل ما تبقى .

فجأة وجدت نفسي وحدي . كل من كان وما كان معي قد اختفى . . . ثلاثي فجأة خرج من الباب أو من النافذة . . لا أعرف . فقد امتدت يد الظلام وسحبت المصاييح والمقاعد والمناضد . . وكل ما بقى هو طراطيش كلام في أذن . وبقايا روائح وعطور وعرق وسجاير وزكام في أنفي .

وفي الظلام تلمست طفاية سجائر كانت أمامي . . فيها بقايا سجائر طويلة أطفئت بسرعة . . وسجاير أطفئت على مهل . . وسجاير سحقها أصابع عصبية . . عليها أحمر شفاه . . عليها نار وليس لها دخان .

هذه السجاير التي أعرف كيف لقيت مصرعها واحدة واحدة هذه السجاير الطويلة رأيتها وهي تموت في شبابها . . رأيت يداً غليظة تدفنها حية . . إنها سيجار صديقي الذي مالت عليه زوجته تهمس في أذنه . . وكلما تعالى الهمس زاد ضغط أصابعه على هذه السيجارة الطويلة . . لقد أنكر أنه يعرف من الذي طلبه في التليفون عدة مرات ولم يشأ أن يرد عليه أو عليها . . ولكن زوجته مصرة على أنه يعرف

وأن التي طلبته هي خطيبته السابقة وأنها رأها منذ أسبوعين قريبة من البيت وأنها سمعت . وأنها وأنها . . وتحطمت السيجارة تحت أصابعه . خنقها . . وأدها . كما كان يفعل العرب في الجاهلية . . كانوا يثدون البنات خوفاً من القضيحة .

وهذه السيجارة تركها صاحبها تشتعل دون أن يقربها . . إنه يجد لذة في تعذيب الآخرين . يراها ولا يلمسها . يحرقها ولا يطفىء نارها . لقد أخرجها من جيبه بأناقة وأشعلها بعناية . وتركها هناك بهدوء وراح يتفرج عليها بلذة . . إن صديقي هذا يحاول الإقلاع عن التدخين . . لذلك فهو يشتري السجائر ويشعلها ولا يدخنها . . وإنما يضعها على حافة الطاوية . . على حافة الهاوية . . إنه تعب من التدخين . . إنه كالرجل الذي تعب من اللهو . . تعب من عشرة النساء . . تعب . . فهو يتفرج بلذة المستقيم الشامت . وصديقي هذا يحاول أن ينتقم من مئات الألوف من السجائر التي لسعت شفثيه وأحرقت حلقه ومزقت صدره وصبغت بالصفار أصابعه . . وهذه السيجارة دخنها صاحبها بسرعة . . وأشعل منها سيجارة أخرى . . أنها بزازة في فم طفل يرضع الهواء . . يموت إذا ابتعدت عن فمه .

وهذه السيجارة عصاً يتوكأ عليها الكلام عندما يخرج من فم هذا الصديق . . إنه لا يتكلم إلا وهي في فمه . . إن كلامه دخان في الهواء . . أو دخان كلام في الهواء . .

حياتنا كلها سجناء . . . متشابهة . . . هذا يدخنها على مهل . . . وهذا بسرعة . . . وهذا يتفرج عليها . . . وهذا يحرقها وتحرقه . . . تمزق صدره ويسحقها . . . السجناء تنتهى فى أفواهنا أو نحن الذين تنتهى عند أطراف السجناء . . . نحن الذين ننقلها بأصابعنا إلى الطفاية . . . أو هى التى ننقلنا . . .

لا أعرف ماذا كنا نقول . . . تكلمنا كثيراً . . . ولكن ماذا قلنا ؟
لا شئ . . . ناقشنا كل مبدأ وكل مذهب فى السياسة والاقتصاد والأدب والنقد . . . ولم نتفق على شئ . . . كأننا نتكلم بلغات غير معروفة . . . فكل واحد قال ولم يسمعه أحد . . . كنا ننظر إلى شفثيه لنعرف إنه يتكلم . . . فإذا أطال إطباق شفثيه عرفنا أن المدة المخصصة للكلام قد انتهت .
فيتكلم بعد ذلك الذى يجواره .

كأننا كومبارس ننتظر أحد الأفلام . . . كأننا ست شخصيات تبحث عن مؤلف . . . كأننا ست عارضات للأزياء ولا تنقصنا إلا الدار التى نعمل فيها . . . كأننا ست سجناء أشعلت وتركت لكى تخمد أنفاسها بنفسها .

كل فكرة قيلت أخدمت فى الحال . . . كل فكرة اشتعلت ودخلت رأسى انطفأت فى الحال . . . كل الأفكار أسمعها ولا أكاد أفكر فيها حتى أسمع لها صوتاً واحداً : طش . . . وهذا صوتها وهى تنطفىء فى رأسى التى هى بحيرة راكدة . أو طفاية سجناء مليئة بالماء . . .

جلسنا وتكلمنا وأطفأنا سجنائنا . وانطفأت فينا أفكارنا . . . وقام فأر السبتية بمهمة مدير المسرح فأنزل ستاراً أسود وبدأنا نخبط وننخبط . . .

تماماً كأننا في مسرحية بدأت من آخرها فتزل الستار وسمعنا الدقات التقليدية للمسرح . . ودخلنا في مسرحية عقيمة نسمع فيها ولا نرى . . والذي نفهمه لا يقنعنا ولا يعيننا . . وكل محاولة للكلام أخذت فوراً . . وكل محاولة لاستئناف الكلام هي محاولة لإشعال عقب سيجارة مبللة . . ومددت بدى إلى طفاية السجائر كأننى طفاية أمسكت طفاية .. ومن « أعقاب » كل شيء لففت هذه السيجارة التى قرأتها !

اشترك فى سلسلة اقرأ تضمن وصولها إليك بانتظام

الاشتراك السنوى :

- داخل جمهورية مصر العربية ٦٠ جنيهاً.

- الدول العربية واتحاد البريد العربى ٨٠ دولارًا أمريكيًا.

- الدول الأجنبية ٩٠ دولارًا أمريكيًا.

تسدد قيمة الاشتراكات مقدّمًا نقدًا أو بشيكات بإدارة الاشتراكات
بمؤسسة الأهرام بشارع الجلاء - القاهرة.

أو بمجلة أكتوبر ١١١٩ كورنيش النيل - ماسبيرو - القاهرة

طبع بمطابع دار المعارف
